مراد ناجح عزيز

بعض من الوجوه الغائبة

قـصـص

إصدارات دائرة الثقافة، حكومة الشارقة 2024م

الفهـرس

الإهداء.....4
1- ابتسامة لا تفارق شفتيها.....5
2- بعض من الوجوه الغائبة.....6
3- أزحف داخل حِذائي.....7
4- أم الدّسوقي.....9
5- بُقع بيضاء في رداء أسود.....11
6- بانتومايم.....13
7- ما تبقى من صخب.....15
8- بعيدًا حيث لا أحد يعرفه.....17
9- تُراث من الألم.....19
10- الباب الحديدي.....20
11- شيئًا لا نراه.....22
12- رسائل أبي.....24
13- عملية تثبيت.....26
14- لا أحد هُنا يبيع أوتارًا.....38
15- تكسير عِظام.....30
16- لعلّي أكون أكثر اتزانًا.....33
17- ضاقت بأشواك رغبتها.....35
18- لم تُغادر طفولتها بعْد.....36
19- لُغة البحر.....38
20- أصابع العَوز.....40

21- يتلكّأ لمُغازلتـي.....42
22- هزائم قديمة.....44
23- مسدّس برمودا.....46
24- وجهًا كانـت تألفُه.....48
25- هـروب.....50
26- تُـرب الأقباط.....52
27- قُبورًا من التّجاعيد.....54
28- مُهاجرًا كالطّير.....56

" ثمة طائر ألقى ببعض ما جادت به حوصلته، ليرسو قطار غربتي هُنا"

إهـداء إلى..

كل التّفاصيل الصّغيرة في حياتي

إلى مدينتي، إلى أسرتي

إلى وجه كنت أعرفه

إلى خيال عشت فيه

إليهم جميعًا..

فقد منحوني متعة الكتابة

والرغبة فيها.

-1-

ابتسامة لا تفارق شفتيها

بدا المكان..

كأنه استعداد تام لحفل زفاف، تمتد الأشرطة الملونة من حائط إلى آخر، تتناثر البالونات هُنا وهُناك، صوت ضجيج يعلو تدريجيًا كلّما اقترب الموعد المحدد، رنّات ملاعق وأواني تخرج من داخل غرفة المطبخ، يبدو أن الجميع قد انتهى من عمله، يتوافد المدعوّون تباعًا، وما بين كلمات يُغلّفها شوق، استقبال حافل للبعض في عناق حار، هكذا هي الحياة في سباقها غُربة واقتراب، تمضي الساعات متعجّلة، كأنّما هي حديقة تُفتح لزوّارها قليلاً.

وحيدًا جلس في مقعده يلتقط بكاميرا عينيه اللتين أُرهقتا لسنوات تحت وطأة عمله محاسباً في أحد البنوك، مستسلمًا يتجوّل مع خطوات وصيحات الحضور، مازالت ذاكرته تحتفظ بالكثير من تفاصيل أعوام مضت، لم يعهد سكونه قَط، تثقله أقدامه.

لم يعد قادرًا على الحركة بمفرده دون عكّاز، صديقه الذي يلازمه منذ خروجه على المعاش، يا لها من حقيقة شاخصة أمامه بكل غطرسة، تمنّى لو أن الزمن عاد به؛ لكانت لمساته في كل مكان تؤكد بأنه مازال على قيد الحياة، يهتم بأدق التفاصيل، لا يخجل من ترديد أغنيات الحُب لها، يسترق النظر إليها من وقت لآخر، تراقِب هي الأخرى ما يجري هُنا وهُناك، ابتسامتها لا تفارق شفتيها، تتسارع دقّات قلبه، تزكمه رائحة عطر طالما تعوّد عليه، تسرّب خِلسة إليه، كمن شَعُر بنسمات الحياة مرّة أخرى، قد ترك عكّازه وحيدًا، التفّ الحاضرون حول المائدة، تتوسّطها أنواع شتى من الحلويات والمشروبات، دقّات السّاعة تُعلن اقتراب موعد انتهاء العام وبداية عام جديد، تسلّل هو من بين دائرة الحضور، لتبدو دائرة لم تكتمل بعد، اتجه نحوها، رفع رأسه عاليًا حتى طالت جبهتها، مال عليها، قبّل جبينها، احتضن صورتها بين يديه، ثم عاد ليكمل دائرة الحضور وهو يقول: الآن اكتملت الدائرة، بدأ الجميع في العد التنازلي.. 7و6و5و4و3و2و1، انطلقت الصّيحات تهنئ ببداية عام جديد، بينما ظل هو يحتضن صورتها بين يديه ويقول:(كل عام وأنتِ دائما بيننا).

-2-

بعض من الوجوه الغائبة

تسرّب..

الشيب إلى خصلات شعرها، كتسرّب الماء من بين الأصابع، تحاول إحكام قبضتك عليه إلا أنك لا تستطيع مهما كانت قوّتك، مكتفية بطيّه بشكل عشوائي دون اهتمام، لم تكن هذه من عاداتها، وهي التي طالما كانت ضفائرها تجتاح حدائق الكتفين وأغوار الظّهر، ولكنها كبقيّة البشر تتنازل برغبتها عن أشياء، وأخرى بغير رغبتها، يطوّقه رباطة قماشيّة ذات لون واحد، على أدق تعبير هو لون يميل كثيرًا إلى الزّرقة أو السّواد، إلّا قليلاً من الشّعر يظهر أعلى جبهتها على استحياء، انحنت أكتافها تحت سترتها الثقيلة، ترسم خطوط الزمن هالة سوداء أسفل الجفنين، تنفصل تمامًا عن عالمها مكتفية بما تشاهده عبر شاشة التليفزيون، بينما يديها تتابع تشكيل وصناعة شراب صغير لوليدها الذي يلهو إلى جوارها، تحاول ترتيب جلستها مع اشتداد برد الشتاء، تَسقط من يدها بكرة الخيط، تحاول قطّتها العبث واللعب بها وكأنها تحاول استكشاف كل مكان، تتشابك خيوطها بين أرجل الكراسي، حتى أنها وصلت إلى زوايا بعيدة في غرفة نومها، هي لا تريد الانفصال عن متابعة المسلسل، كما أنها لا تريد مزيدًا من تشابك الخيوط، لا مفرّ إذًا من التوقف عن المشاهدة قليلاً، تحركت بخطوات ثقيلة هي الأخرى، وكأنها تجر أقدامها واحدة تلو الأخرى، لم تعد تطيق صبرًا على محاولة فك الخيوط بسهولة ويسر، قليلاً منه أصبح بلا عُقد والكثير مازال عالقًا بأرجل الكراسي وسرير غُرفة النوم، جلست على ركبتيها، انحنت كثيرًا تبحث عنه بين الزوايا، وإذا بها تصطدم بصندوق خشبي صغير، أفرغت محتواه بدافع من الفضُول؛ لعلّها نسيت ما بداخله أو هو نوع من البحث في الذكريات عن شيء يُعيد لها بعضًا من الوجوه الغائبة، اعتدلت في جلستها، تتربّع أرجلها واحدة تلو الأخرى، تتصفّح ما به (لفافات صغيرة، شهادة ميلاد طفل، سترته مشغولة باليد من خيوط الكروشيه) يبدو أنها تعثّرت عمدًا في لحظات فقدانها لطفلها منذ زمن بعيد، تحشرج صوتها بالبكاء، تساقطت غزيرة دموعها، أغلقت الصّندوق، وراحت بيديها تمزّق خيوطًا تشابكت هُنا وهناك، عادت والدموع مازالت تنساب على وجنتيها، استعادت جلستها لتشاهد المسلسل، وكعادتها رغم مشاهدتها له أكثر من مرّة، تحاول استحضار بعض أحداثه، إلا أنّها دائمًا ما تفشل في ذلك وتقول:(يا ترى البطل أتجوّز مين؟).

-3-

أزحف داخل حِذائي

عادة..

ما أظل مستيقظًا طوال الليل، إلا من هفوات نوم خاطفة، تلك التي تحاصر جفنيّ حتى أستسلم لبعض الوقت، هكذا كانت ساعات انتظاري دائمًا يسبقها ترقب ويقظة، نعم أصبحت أكره الانتظار، وددت لو أن أقفز أمام عقارب الساعة أحرّكها فتنقضي الدقائق والساعات رقيقة دون ملل.

لا فائدة من الانتظار، أزحت أثقال غطائي الشتوي (لحاف وكوفرتة) هكذا كانت تخشى على جسدي النحيل من صعقات الهواء، فلا تترك لها بابًا مفتوحًا أو مواربًا، إلا وحاصرت مراكز القوى فيه من كل الجهات، أشعر بحمولة جسدي ثقيلاً، لم ينل كفايته من الراحة بعد، بيدين مرتعشتين أفتح شباك غرفتي، أحاول اكتشاف منابع شروق الشمس، لعلها تمشي متكاسلة في شوارع شتوية كفاتنة تخشى على قدميها من بِرَك المياه المتجمعة نتيجة هطول الأمطار، أو هي تحاول عبثًا الخروج من دائرة السُّحب الكثيفة لكنها تتعثر، ثم تحاول مرة أخرى، يا لها من لحظات أشعر خلالها بتوقف الحياة، أزحف داخل حذائي الإسفنجي الخفيف، التحف الكثير من أغطيتي، كوبٌ من الشاي قد يسرق بعض الوقت (دقّات الساعة، خيوط أشعة الشمس، نداءات صوت أمي) جميعها أصبحت للتو فريق عمل واحد، يبدو أن عليّ من الأعمال ما يحتاج الإنجاز بسرعة، الأفرول مطبق بعناية شديدة حتى لا تصيبه الكسور ويصبح واجهة لزي عسكري مشوّه، الكاب أيضًا معلّق في وداعة ينتظر يداً تحنو عليه، تفتّت أثقال وحدته، بينما يحتاج حذائي الكثير من الوقت، لما به من رباطات تلتف حوله بعناية، حقيبتي هي الأخرى، لا بد من ترتيب وضع أوراقي بها إضافة إلى بعض ما جادت به أمّي من طعام، متعجلاً أخرج بصحبة والدي الذي أصر على ذلك، وكأنني طفل لم أنس أبدا صحبتي له أول أيام دراستي؛ منذ أكثر من خمسة عشر عامًا.

الشتاء في مدينتي يدافع عن سلطان قسوته كلما اقتربنا من نهاية الليل، فلا أحد يحاول عبثًا التفكير في المرور من هُنا، نعم هو طريق المستشفى، يتصدّره من الناحية اليسرى مشرحة الموتى، مازالت تكشّر عن أنيابها حكايات عن القتلى وجثث الغرقى، وكيف أنها تستطيع

الخروج من أماكنها ليلاً وتتربص للمارة في أي وقت، تركت والدي قبل نهاية الطريق خوفًا عليه من هواء الشتاء القارس، هو الآخر أفلست السّنون نضارة وجهه واستأسدت على ما تبقى له من قوة وحيويّة، وافق أبي نزولاً عند رغبتي وتحت إلحاحي الشديد، كما أنني لا أريد للحظات الوداع أن تداعب مشاعري فتنهمر من عيني الدموع.

أخذت طريقًا آخر غير الذي يمر بالمستشفى، وقبل نهايته تذكرت فجأة الحديث عن قتيلة هنا في آخر الشارع، نعم هي قتيلة الحب، نظرت يمينًا ويسارًا لا أحد، فقط هي خطواتي تحفر في الأرض كأنها تمشطها، أشعر بأنفاس تلاحقني، لا أستطيع النظر للخلف، قدماي تتخبط قليلاً، أين جسارتي؟ يا ليت أبي لم يتركني وحيدًا؟ تقترب الأنفاس مني أكثر وأكثر، يبدو أنها تتعمدني، لا مفر إذا من المواجهة، أصابع خشنة حطّت على كتفي، أبي لم يرتح قلبه، فعاد سريعًا وهو يقول: (أنا لازم أوصلك بنفسي للقطر، زى ما وصلتك أول مرة للمدرسة).

-4-

أم الدّسوقي

اشتد..

صقيع الشّتاء ليلاً، يا لها من ليلة، يبدو أنها لم تبح بكل أسرارها بَعد، وجه أمّي يتصبب عرقًا، لم تَعد قادرة على حمل جسدها دون تأوّه، إنّها آلام الولادة، تحتك أسناني بعضها ببعض، تصدر صوتًا يشبه نغمات آلة موسيقيّة تحتضر أوتارها، خلت الشّوارع من المارة، إلا قليلاً ممن يتسكّعون بعد أن أغلقت المقاهي أبوابها خوفًا من هطول الأمطار.

ممسكًا بيد أبي، يخطو سريعًا كعدّاء يصارع الوقت، أصوات نباح كلاب ضالة، انشق صدر السّماء ليفسح طريقًا للمطر، غاصت أقدامي في الطّين، تعثّرت خطواتي في حرب لا ناقة لي فيها ولا جمل، تأفف أبي من ثقل خطواتي، حاول كثيرًا أن يسلك طريقًا آخر، لكنّها تستغرق وقتًا أطول، بيت (أم الدّسوقي) لا يبعد كثيرًا عن طريقنا، استغاثة أمّي بإحضارها، كان لها تأثير التّحدي للوصول إلى الهدف مهما كلّفنا الأمر من مشقّة.

من بعيد تراءى لنا منزل أم الدّسوقي (الدّاية)، أصبحتُ قنفذًا صغيرًا داخل معطفي، يداي تختفيان داخل أكمامه الطويلة، رأسي لا يكاد يظهر منه سوى جبهتي، أتحسس الطريق بين حين وآخر بالتفاتة صغيرة ثم أعود داخل قوقعتي، لم تهدأ الأمطار بعد، فقط تواصل عزفها الضّاري بأنياب ليل، لا تخلو نغماته من أنين، مازال صوت أمّي يخترق المسافات، بيتها طيني قديم، تحيطه ظلمة فقيرة، فلا هُناك أعمدة للكهرباء ولا بصيص نور خلف نوافِذه، دفع أبي الباب الخشبي بيده، صوت أزيز يخرج منه، لا يوجد أثر لحياة هُنا، صوت نهنهة مُتعبة، كأنّه ميّت يتحدّث من داخل قبر، إلا من ضوء خافت يأتي من بعيد "يارب يا ساتر" هكذا كان استئذان أبي بالدّخول.

(أم الدّسوقي) عجوز انحنى ظهرها، لا تقوى على السير بمفردها، تكاد عيناها أن تكابد رؤية من يتحدّث إليها، تتحسس الأشياء من حولها، تتخبّط خطواتها متّكِئة على ذراع أبي، لم يكن أمامنا للوصول سريعًا إلا حِمار يحْملها، كانت هذه إحدى الوسائل المُريحة في ذلك الوقت،

مازال الطريق موحِلاً، أعمدة الشوارع مُطفأة، حملها أبي على كتفيه حتى فِراش أمّي التي هدأت قليلاً لرؤيتها.

دقائق قليلة يُعانقها ترقّب وانتظار، لا شهيّة لشيء إلّا انتظار البشارة، فجأة إذا بصوت رضيع يشدو ببكاء، وكأنّ ضيق المكان انسحبت حوائطه للخلف قليلاً، ليبدو أكثر رحابة واتّساعًا، استمر صوت البُكاء مختلطًا بزغاريد أمّي، وقد ملأت أرجاء المستشفى وخارجه، ترقرقت عيناي بالدموع ما بين سعادة وألم.

-5-

بُقع بيضاء في رداء أسود

لو أنّها الكهرباء..

انقطعت بفعل أو بآخر ولم تعد قادرًا على مواصلة تتابع الأحداث من حولك، أو أنّك كاتب محترف ولم يكن بإمكانك التعبير عن الأحداث بدون رؤية بالعين؛ أنا أقدم لك كل ما تحتاجه دون تعب، فقط عليك أن تُصبح أحد سكّان شارعنا.

يبدأ شارعنا من نهاية شارع المحطة، نزولاً بموقف عربات المدينة ثم قهوة حنفي ومطعم أبو العلا، مرورًا بمنزل النائب، تُحيطه حديقة يعلو سورها كثيرًا عن محاولة النظر بداخلها. ومن ثمّ يبدأ شارعنا المعمور وقد غادرته بهجة الألوان وكأنّما هو قابع في زمن بعيد لم ينل حظّه من رخاء العيش، أبنية قديمة متهالكة، تتستّر بداخلها الشّقوق، تكتظ بأنفاس ووجوه تآمرت عليها خطوب الزّمان، فجعلتها بالكاد تنقل خطواتها ثقيلة في رحلة البحث عن لُقمة العيش.

في ثياب رثّة ووجه تملؤه الكراهية، وقف(أستيكة) كما هو مُلقّب لكونه لا يترك حقيبة لطفل إلاّ ويفرغ محتوياتها تمامًا، أو يمزّق بمِطواة كرة لأطفال يلعبون بالقرب من منازلهم، أو يُحاول معاقبة الفتيات اللاّتي يمررن به في طريق عودتهم؛ بالتّحرش بهن بألفاظ نابية من مفردات تعوّدت عليها قلّة من هؤلاء الشرذمة من اللّصوص وقطّاع الطّرق، طالما لم يجد أحدهم من يرد أفعاله بليّن الكلام مُراعاة لحقوق الجار، أو زجره بقسوة إذا ما احتاج الأمر.

بدأ "أستيكة" بالتوسّع في النّشاط من شارع لآخر في الحدود التي تؤمّن له ذلك بالقُرب من دائرة أصدقائه من اللّصوص والذّئاب المنفردة، ضاربًا بعرض الحائط كل ما تعهّد به أمام الجميع سلفًا، لا سيّما وهي الطريقة الوحيدة التي جعلته ومَن على شاكلته من متسكّعي النّواصي وأوكار الليل مركز اهتمام،

حتّى أنّ وجوده أصبح يمثّل حدثًا في حد ذاته، فغيابه يعني اتّساع مساحة الحرّيّة أو هي لا قدّر الله استكانة حذرة، تجعلك غير آمن في رحلتك ليلاً إذا ما حاولت استثارته بخطوات مُتعجّلة دون أن يسمح لك بذلك.

يبدو انقضاء ساعات النّهار فُسحة من حصار يبدأ نفيره قُرب غروب الشّمس مباشرة، لا سيّما في مثل هذه الأوقات من الشّتاء، تنحصر حركة البيع والشّراء كثيرًا إلّا من تجمّعات داخل المقهى وعلى مسافات تبعُد كثيرًا، حيث يتنفّس شارعنا هواء نقيًا طالما غاب عنه. ثمة رجل بصحبة أبنائه هزمته خفقات قلبه انتظارًا لعودتهم، فساورته الشّكوك تاركًا فنجان قهوته يُنازع برد الشّتاء وحيدًا، امتطى جواد همّته جسورًا، يبدو الشّارع رخوًا دون بشر بالرغم من خطواته التي تصدر صوت نغمات متألّمة في إيقاع موسيقي باهت متمتمًا: لا بأس من ذلك ربّما اعترضهم أحد الكلاب الضّالة، أو ربّما ساقهم في طريق "أستيكة" حظ عاثر وهذا جل ما أخشاه.

هدوء تام، لا أعلم ما إذا كانت الحياة قد توقّفت لإعادة تشكيل وجهها أم هو الهدوء الذي يسبق العاصفة، بالفعل هو كذلك قبل إعلان النفير العام وتعبئة الحناجر قبل أن تنطلق من فوّهاتها كبالوعة صرف صحي أبشع الألفاظ والشّتائم، تراشقًا ما بين جهتين، إحداهما مُدجّجة بالعصي وزجاجات المياه الغازيّة، وأخرى لبعض الطّامعين من أشباه "أستيكة" ممّن استباحوا العيش كطفيليّات دنيئة تعلو رؤوسهم الأسلحة البيضاء والجنازير تلوح في الهواء بحثًا عن جسد تمزّقه، اشتد الشّجار كحرب حامية الوطيس، أغلقت المحال، استتر البعض داخل عرباتهم أو بالجري بعيدًا عن احتدام المعركة وتراشق زجاجات المياه الغازيّة محطّمة في طريقها ما تقابله، تحطّم زجاج النّوافذ وأبواب المحال التجارية.

ثمة طعنة غائرة أصابت أحدهم، كاميرات المحمول تحاول اقتناص اللحظة، ربّما رأى البعض فيها نهاية لتلك المستعمرة من اللصوص، إذا ما توافرت الظّروف ربّما نحتاجها كلّما حاولنا تفريغ الذّاكرة من بعض الحكايات القديمة أو للتسلية ببعض منها لأطفالنا الصّغار.

استعاد شارعنا مكانته خلالها، ناله ما نال وجه الحياة من حداثة، كبقع بيضاء في رداء أسود، تداعب فيه النغمات أحلامًا سئمت زفرات ألم وضيق مَن يحملها كلّما تراءت له، مازال سور الحديقة عالٍ، بينما تضاءلت أضواء منزل النائب كثيرًا، يبدو أنه أصبح خارج دائرة الضوء من رجال السّلطة والنّفوذ..

انتزعتني رنّات هاتفي المحمول من ردهة السّفر بعيدًا، مستغرقًا في قراءة بعض سطور ذاكرتي، أرخيت جسدي قليلاً للخلف، في حين تشابكت أطراف أصابعي أعلى الرأس، انتفخت فتحتا أنفي كثيرًا لاستنشاق أكبر قدر من الهواء، محاولاً إصلاح ما أفسدته تلك اللحظات الغائمة.

-6-

بانتومايم

استأسد الهم يطارده..

وحيدًا ينازع بين فكي ميراث هم ثقيل، خلّفته أمواج أيام تضرب أوتار قلبه، حتى استحال العزف فيه أنينا تصاحبه الدقائق والساعات، تلاحقت أنفاسه صعودًا وهبوطًا، تشابكت الأرقام صغيرها وكبيرها، سقط البعض منها والآخر ظل يناطح أيامه رأسًا برأس، اختنق صوته بينما هو يحدّث نفسه: لا فائدة، ساخرًا يتأمّل جملة ما يتقاضاه شهريًا، مازال هناك الكثير مما يصنع فجوة بينه وبين اعتزال الألم (أقساط وديون وفواتير قد تأخر موعد سدادها) لا شيء يمنحه حريّة من قيده، بخطًا ثابتة يقطع المسافات، لا يعلم من الوقت ما مضى، أو إلى أين ساقته قدماه، وإذا بالأرض تنشق عن مكان أشبه بلوحة فنية، لكنها مفعمة بالحياة، خطوات قليلة، تبدو البنايات هُنا تخالف ما تعوّد عليه من ارتفاعات، أطبقت بكِلتا يديها على ما تبقّى من هواء، متناسقة الألوان؛ أو هكذا تبدو من أوّل وهلة حين ينظر إليها، تحيطها الأشجار من كل ناحية، حركة السيارات قليلة، تزدحم الشوارع بباعة البالونات، والآلات الموسيقية، لا وجود لصراع على البقاء، البقاء هُنا لسطوة الغناء والرقص.

أصابته دهشة ما يشاهده، فلا أحد يحاول أن يعيق الرقص أو الغناء، بل بالعكس تتوقف السيارات، ينتظر المارة من المشاة، دون غضاضة من أحد، حتى انتهاء العزف والغناء، إنها حياة هُنا، الأضواء تتلألأ كأنها مهرجان أو احتفال بزفاف، دقائق رّبما أو هي ثوان معدودة، صار المكان يعج بعشرات الراقصين، أطفال ورجال ونساء، أصوات غناء تصاحب استمرار العزف، تشق طريقها دون عائق، كانسياب المياه في مجرى واسع، شعُر بحرج شديد، وحده في هذا المكان يقف صامتًا، للتو قرر أن يشاركهم الرّقص والغناء، تخفف من سُترته الشتوية، طوّح في الهواء جسده، الذي بدا نحيفًا بدونه، يتنقّل في المكان، كطائر يضرب بجناحيه في الهواء محدثًا صوتًا، لطالما ارتد صداه إليه أنغامًا جميلة.

المكان هُنا أشبه بدائرة أُحكم إغلاقها، وحدهم المتطفّلون خارجًا، في ثياب رثّة، يطاردهم دوي

الموسيقى، كقطيع جيش مهزوم تسير إلى ثكناتها، حتى فرغت المدينة ممن أصابتهم اللعنة، أو ممن امتلأت خزائن قلوبهم همًا، توقّفت الموسيقى قليلاً، توقّف الرقص أيضًا، التفت إلى ضجيج ضحكات يتوسّطها راقصًا دون أن يشعر، وكأنه لاعب بانتومايم، يطوّق بذراعيه حبيبة لا وجود لها، رشيقًا دون أن تثقله هزائمه.

-7-

ما تبقى من صخب

كنت..

في صِغري أميل دائمًا لتقليل نفقاتي، وادّخار بعض مصروفي لوقت أحتاج فيه شِراء ما هو من وجهة نظري أفضل، أجيد دغدغة مشاعر أمّي بكلمات من شأنها ترك ابتسامة على وجهها لمعرفتها المُسبقة بأن لتلك الكلمات وجه آخر، هو فقط ما أريده، فتفتح خِزانة صدرها الدافئة والممزوجة بعرق اختلط بمِسك أنفاسها، داسّة في يدي ما جادت به، تأصّلت داخلي تلك العادة حتّى أنّها صارت بالنسبة لي داء عُضال، فلا لُعبة اشتهيتها وباتت تُغازل طيف أحلامي ليلاً إلا وأرجأت شِرائها لما بعد.

امتلأت حصّالتي بفائض ما احتوته، فكلّما نظرت داخلها هالتني تلك الأحلام التي ترقد كطير كسيح، تتوشّح بسواد أرملة، طاردتها سنوات الهجر دون وليف، أرى ذلك الطّفل وقد غادرته درّاجته وطائرته الورقيّة التي طالما حلّقت وتراقصت على أعلى قمم البيوت القديمة والعمارات الشّاهقة، تُغازلها شمس يعكس ضوءها زجاج النوافذ، وربّما هي لحظات توقّفت خلالها لتقرأ تفاصيل لقاء حبيبين، أو ربّما لوّحت لها يد عجوز تطعم عصافيرها، وترعى ما في تبقّى لها من صخب الحياة وردات صغيرات.

ارتقيت سطح منزلنا، أتحسس المكان رؤية بالعين، أجهد في التقاط أنفاسي التي انشقّت عن جسد ظل يُحاصرها حتّى استكان تحت ضربات الزّمن، ضباب كثيف يملأ الأفق، تظلّله انحناءة الأشجار في شكل هندسي على جانبي الطّريق، عنيفًا أسمع تلاطم الهواء على وجنتيّ، أرنبة انفي تكاد أن توُرق احمرارًا، سيل من الماء يتهادى عبر فتحتيها، أتخلص منه بحركة عشوائيّة

كالأطفال، أرى أمّي تمشّط عتبة الدّار صباحًا من بقايا سجائر وبعض أوراق الشّجر المتناثر شرقًا وغربًا، فضلاً عن بعض رماد ليلة ألقمْنا نارها حطبًا في ليلة شتويّة، ثمة كعوب لأطفال تدُك صدر الطّريق فرحًا، بأجساد رقيقة تتلقّى صفعات برد الشّتاء، أسمع دبيب انفلات ثورة في داخلي، ربّما كانت فُرصة لاستثارة طاقة الكلمات، فخرجت صارخًا، طوّحت يدي في الهواء

على اتّساعها، ناثرًا كل ما ضجّت به خِزانتي، لعلّها تصبح كانهمار المطر في صحراء قاحلة.

ثمة طفل أغرته تلك العُملات القديمة، انحنى لها يرقُب المارة من حوله، اتّسعت حدقات عينيه فرحًا أمام بائع الحلوى، ليعود خالي الوِفاض خائب الرجاء، إلا من اقتضاب وجه بائع الحلوى لعملات فقدت قيمتها ولم يعد منها ما يصلح للبيع والشّراء، كلّت عيناي انتظارًا، وقد تناثرت أحلامي هُنا وهُناك تحت أقدام المارة، فأقدام تركلهم بعيدًا ويد رقّت لحالها كقطعة خبز جافة، تركتها بجوار حائط قديم، وقد نَحلت أجسادها وخف وزنها، فعَدت هي الأخرى لا قيمة لها، فما عساه أن يفعل طفل بحلم عجوز أراد يومًا بناء منزل بعملات قديمة، وما عساه أن يفعل عجوز بحلم طفل لشراء لُعبة أو بعض الحلوى؟ بالفعل لا شيء.

يكاد ينفد الهواء من حولي رغم اتّساع السّطح، أجهشت بالبكاء، ثمة طائر ألقى ببعض ما جادت به حوصلته، ليرسو قطار غربتي هُنا، مكتفيًا بخربشات حلم، ربّما لو عاد الزّمان به، لَما تركت له حصّالتي يملؤها بعملات قديمة.

-8-

بعيدًا حيث لا أحد يعرفه

خرج..

بعد مشادة كلامية بينه وبين والده، لا غرابة في أمر يحدث كثيرًا.

جالسًا أستمتع بشاي مغربي كعادتي، وأسترق النظر عبر الأفق البعيد، تبدو خطواته متعجّلة، لا يعرف اتجاهًا لها، يلتفت للخلف ما بين مسافة وأخرى، ربّما يتبعه أحد، تمنّى أن يكون والده، فهو لا يريد أن يخرج عن طوعِه، سنوات من التّنقّل بين عملٍ وآخر، دون مردود يفي بتحقيق حلم فقير، هزمته عبرات نفسه باكيًا، وبإشارات إصبعيه متوعّدًا بأغلظ الأيمان: (أنا لا زم أسافر لأي بلد محدّش يعرفني فيه)، زحام وجوه وأيادٍ تسكن قلبه، كم يتوسّط لُعبة شد الحبل بين طرفين، وما بينهم يتمزّق هو على قارعة الطّريق، خوف من مصير مجهول والخروج عن طاعة والده، يشدّه إلى الخلف، وضيق ذات اليد يدفعُه للأمام، هُناك فقط يستطيع العيش دون مراقبة من أحد، هُناك فقط يستطيع أن يحصُل على كل ما يريد من حرّيّة ورغد العيش، وقليل من سنوات الغُربة، يفي بالكثير من الرّاحة.

أتذكّر هذا اليوم وكأنّه الآن أو هو على أدق تعبير يوم كحَفْر على الحائط بآلة حديديّة، توسّدت خلف شقُوقه حدائق غضّة، أسفار حلم ببعض الحلوى، قبلات ما قبل الذهاب إلى المدرسة وقبلات ما بعد العودة منها، طمأنينة العيش ونوم هادئ دون خوف، أحضان دافئة، سنوات مرّت كمغناطيس يجري على الأرض، يلتقط في طريقه كل ما يحلو له من حدائق العمر، تاركًا خلفه قليلاً من الذكريات وكثيرًا من الوحدة، نوبات حُزن لا تنتهي، بالفعل كان السّفر رغم متاعبه، مغامرة لكنّها نجحت، كما هي عادة من تفتح لهم الحياة

ذراعيها، أو هي خطوة واحدة قطعت مسافات من السنوات تلزم لتحقيق أمنية واحدة، لكنّها طالما تركت على الوجه آثارًا لمدينة ضربها السّيل، وتركها حُطامًا تتكئ على عكّاز، تجترّ رحيق خطوات، وليلاً يأنس بحكايات وأحضان تلملم بعثرة الوقت على أطراف النهار.

الشّتاء يضرب بقسوة، الرياح أيضًا تضرب بكف غليظة كل ما تقابله، حالة من العشق تشاهدها

في التقاء رؤوس الأشجار قسرًا، كمن أرغموه على الزواج بغير رضًا، نحيفًا ينحني داخل معطفه، معتليًا أحد الأحجار على الشّاطئ، هطلت الأمطار بغزارة، لكن قلبه مازالت تلفحه نيران الشوق، ارتعاشة يده وتصاعد حدّة أنفاسه من خلال دخان سجائره، تظهر كثيرًا مما يحاول إخفاؤه، أطفأ سيجارته الأخيرة كمن يعتصرها بين أصابعه، نزع سريعًا معطفه، ألقى بجسده في الماء بحثًا عمّا يزيل جَمرة النار داخله، ساعات حتى أصبح حديث المدينة رجالاً ونساء، ممدّدًا على رمال الشاطئ ببعض ملابسه، جاحظة عيناه، جثّة لا حِراك فيها، يحتضنه والده وقد طوّقه بين ذراعيه، في مشهد ظلّت تذكره المدينة كلّها، نظر إليه وبرقة قلب يسكنها غضب، قبّله، ثم راح بكف يده اليمنى يلطمه على وجهه وهو يقول:(يا ريتك سمعت كلامي) حالة من الوجوم أصابها جلال الحدث، بينما تحقق له ما أراد بالسّفر بعيدًا حيث لا يعرفه أحد.

-9-

تُراث من الألم

ساقته..

قدماه إلى هُنا، يبدو الطريق موحشًا بعض الشيء لقلّة المارة به، إضافة إلى علو أعواد الذّرة الشّاميّة بشكل يُحاصر مساحة كبيرة يمينًا ويسارًا، لا مفر من مواصلة السّير، انفراجة بضوء يسطع من بعيد، حيث تتداخل ألوانه في شكل حلقات، تعلو مكبرات الصّوت بتواشيح ومدائح يتخلّلها بعض أغنيات المهرجانات ودقّات الطبول، غريبًا وصل إلى حيث الزّحام الذي يكشف عن احتفاليّة كبرى، إنها ليلة ختام مولد أحد أولياء الله الصّالحين، تتنفّس شرفات المنازل بروائح طيّب الطعام، لا يوجد من الأبواب موصد أمام أحد، وكأنّها مائدة تفتح ذراعيها للجميع طوال اليوم، مازال يقرأ تفاصيل المكان بحذر، تتخطفه نداءات الباعة هُنا وهُناك، يحاول قراءة المزيد بخطوات ثقيلة، تاركًا خلفه تراثًا من الألم، الأفراح فقط هي ذلك الوطن الذي يجعل تجاعيد وجهك تعود من حيث هاجرتها البراءة، استسلم لرغبة احد أبناء القرية لتناول وجبة العشاء، لم يتعوّد على مثل هذه الحفاوة، سريعًا أنهى طعامه، ثم غادر المكان، تتبعه كلمات صادقة بكونه ضيفًا مرحّبًا به في أي وقت.

عاود من جديد قراءة تفاصيل المكان حيث أخذته خطوات أقدامه، رفع عينيه قليلاً: إنّها هي! تتوسط سرادقًا للغِناء، تحاول أن تلمس طرف ثوبها أيادٍ كثيرة إعجابًا بصوتها، هز رأسه غير مصدّق، استدار بوجهه فوجدها ترتدي طربوشًا أحمر، تداعب أحد الأطفال أثناء شرائه لُعبة جديدة، هز رأسه مرّة أخرى، لم تخدعه عيناه هذه المرّة، نعم هي، دوي ضحكاتها جعلته يدير جسده كاملاً للبحث عن مصدر الصّوت، تحتضن رجلاً؛ سقطت على وجهِه إضاءة قويّة، مما جعل وجهه غير واضح المعالِم، وضع يديه على أذنيه لا يريد سماع ضحكاتها، ظلّت تراوده من مكان إلى آخر، أصبح وجهها يسبح بين الوجوه، بينما ظل هو يركض خلفها حتى وصل إلى نهاية الطريق، تضاءل دوي صوت المكبرات، طوّق الظّلام قوس قزح الألوان المُضيئة، غابت تمامًا عن الأنظار، التفت للخلف ينظر بحسرة، فلا صوت ولا أضواء، شَعُر بيد على كتفه الأيمن تنقر بلطف: إحنا وصلنا آخر محطّه، إنت نازل فين؟ رد مبتسمًا: آخر محطّه.

-10-

الباب الحديدي

يقف شامخًا..

في مواجهة صفحة ماء النيل، بناية قديمة لسور يمتد بطول وعرض قصر كبير، تدلنا الأخبار على أنه لأحد رجال حاشية ملكية في وقت ما، بوّابته الرئيسيّة تقع في الناحية الغربيّة، فيما يقبع في مؤخرته من الجهة الشّرقيّة باب حديدي، لا تتعّدي مساحته نصف البوّابة الرئيسيّة، ربّما كان مخصّصًا لغرض ما، لم تخبرنا عنه أحاديث العامة ممن أجادوا نقل أخبار القصر وساكنيه وخلق حكايات هي على الأرجح من وحي الخيال.

تقزّم طوله بفعل صنوف التجاهل والحداثة يومًا بعد يوم، وتكرار عمليات رصف الطّرق نتيجة إحلال وتجديد في خطوط الكهرباء أو المياه، وكأنّه عجوز أتت عليها سنوات عجاف، فما عاد لحرّيّتها مكان بين أطلال زمن قديم، ها هو مقيّد بسلاسل وأقفال غليظة، وتزاحم جنباته أكوام من التّراب، حتّى استحال قطعة منها.

جلست بغطاء رأسها الأسود الذي اعتادت عليه أو هو ما كان يوافق هيئتها الطّاعنة في السّن ونحول وجهها، تتابع في استسلام حركة المارة في الشّارع، الذي طالما كان القصر على بُعد خطوات منه، تزفر في ألم بين حين وآخر، كمن انتهت من عمل شاق دون رغبتها.

ثمة طفلة صغيرة بالقُرب من عتبات منزلها، تحمل بين يديها رضيعًا من قماش في لفافة بيضاء، تُحاول حرق كومة قش وبعض الأوراق، تمسّد على ظهره عبثًا بكلمات ربّما سمتعها كثيرًا، وتحاول أن تجعل منها لُعبة مسلّية، وإذا بصوت أم كلثوم يشدو (عاوزنا نرجع زى زمان * قول للزمان ارجع يا زمان وهات لي قلب لا داب ولا حب * ولا انجرح ولا شاف حرمان)

للتّو استبد الحزن بها مستبيحًا خلوتها تجريفًا وحصارًا بيد غليظة، فقط سنوات عمرها الخَمس هي كل ما ادّخرته في خِزانة قلبها المكلوم فُراقًا له، وكأنه الأمس عاد مترجّلاً في ثياب نقيّة، يشاركها اللّعب بين الأزقّة والشّوارع، ليعود مُنهكًا وقد غفا على ركبتيها كعصفور صغير،

طالما ظلّت تهُش عن جسده برد الشّتاء، كسرب غربان لم يهنأ يومًا باختطاف قطعة خبز من بين يديها.

طرقات على الباب، هي أشبه باستغاثات متتالية، ليطل وجه ابنتها الكُبري، تنفر عروقها ألمًا، في حين لم يتوقف وليدها بين يديها عن صراخه المستمر:

(طول الليل على صرخة واحده

زي ماانتي شايفه

لا بينام ولا بيرضع

أنا خايفة يكون اتحسد م اللي داخْلَه

واللي خارجه تقول وشّه زي القمر)

هكذا كانت كلماتها، قبل أن تتلقّفه أمّها، وقد طوّقته بيديها، إلا أن تراءى لها وجه وليدها (مروان) مبتسمًا، مالت تقبّله، حتّى لا مست دموعها وجنتيه، تتستر في ثيابها ليلاً متّجهة صوب الباب الحديدي، راحت تلملم بعض أوراق تناثرت بفعل الهواء هنا وهناك، وأمام باب الحديد، ورغم عِلمها بأن السّنوات أتت على ما تبقّى من أطلاله، إلا من خيال ظلّت تحتفظ به في ذاكرتها، أشعلت النّار، شمّرت عن ساقيها قليلاً، حتى لا تُصبح رهينة قيد يطوّق حرّيتها، وبيد حانية راحت تمسّد على جسده من أعلى الرّأس حتى أطراف قدميه، تُطالع وجه السّماء، تستنطق رجفات قلبها الواهن، ببعض كلمات من شأنها أن تُزيل الكرب بإذن الله، وما بين ذهاب وإياب تعدّدت خطواتها، في حين هدأ الصّغير قليلاً، وكأنّما استراح لدفء أحضانها، يسبح في عالمه الفضّي، يلامس الغيم بكفّين صغيرتين ويعود محمّلاً بكرات من الثّلج يتلقّفها بين يديه.

-11-

شيـئًا لا نراه

اعتياد يومي..

وبعد إنهاك يوم عمل طويل، تليه قيلولة نوم، يتخطّفني فيه شجار ابنتي وأمها، في محاولة لإنهاء واجباتها المدرسية، لا مفر إذًا من العودة خالي الوفاض، من رحلة على مشارف أرض وسماوات جديدة، متثاقلاً أحاول إقامة جسدي، خطوات قليلة تخللها بعض سُعال جاف، ربّما يقظتي هي مَن أثارت استكانته، واتاحت لشهيّة الضّعف مزيدًا من الألم، لم تفتني أيضًا(نظّارتي) لتشاركني الطريق إلى مكان النزاع، في محاولة لرأب الصدع بينهما والوقوف على أسباب الشجار، وكأنها انفراجة ضوء لمكان مظلم، أو هي نافذة لبعض من الهواء المُتجدد، قالت:(أبوك جِه يشوف حل معاكِ) أخْلت سريعًا مكانها، في إشارة منها لتبديل الأماكن وإنهاء ما عجزت عنه، نظرًا لمُعاناتها تحمّلاً لآلام الأسنان التي داهمتها مؤّخرًا، ووجوب حشو إحداها ولا بديل عن ذلك، سوى ما هو أشد قسوة عليها من الألم، أن يُعكّر صفو ابتسامتها فراغ لانتزاعه، إضافة لضيق وقتها ما بين إعداد الطعام، والسيطرة على تلك الفوضى التي طاردت استقرارًا، فها هي فردة حِذاء تسكن أسفل منضدة الطعام، الكثير من الأطباق تحتاج إلى تنظيف، بعض الأوراق تناثرت هُنا وهُناك، ليصبح وجه منزلنا كتلك الرسومات التي داومت ابنتي عليها، ظنًّا منها أن في ذلك راحة لها، وأن ما خطّته يداها إبداع يُضاهي لوحات بيكاسو وفان جوخ.

كنت أنظر إليها في عُجالة، لعلمي أنها لم تأت بجديد، فها هو عصفور وتلك شجرة وبعض المساحات الخضراء، يتوسّطها مجرى مائي قصير، إلا أنها باغتتني يومًا بأن وجه رجل عجوز، يحتل مساحة من الصّورة، يجلس ورأسه

بين ركبتيه، يستظل أسفل شجرة بعيدة، بينما تحاول الشّمس اختراق أغصان الشجرة، ليتسلل بعض أشعتها فوق رأسه، جحظت عيناي لرؤيته، فلربّما خدعتني عيناي، إلا أنها أكدت لي أن ما أراه ليس من بين رسوماتها.

للتّو تذكّرت عمّي، وقد شاءت له الأقدار غربة في العمل، يتنقّل خلالها كل عام لقضاء عُطلة

إجازة قصيرة، فقد تملّكه عشق تلك البُقعة السّحريّة من أرض مصر(أسوان) لم تُمهله السنين خوض غِمار تجربة الزّواج، ربّما هي قصّة حُب لم تكتمل، مازال يذكرها، ناقمًا على تلك الأيام والظّروف التي حالت بينهما، اعتدل يومًا من جلسته، مشيرًا بإصبعه على الحائط تجاه شيئًا لا نراه، مبتسمًا كمن يُراهن على حقيقة، إذا ما حاول أحد التّشكيك فيما ذهب إليه من رؤيا، هي فقط تسكن خرائط عقله، وبحركات أشبه بيد ترسم، وكأنّها ترى ما استقر من وجوه وأشكال(سيّدة طاعنة في السّن تتكئ على عصا وخلفها كلب صغير) هذا ما أكّده لنا بعد عَناء في البحث عمّا يشاهده، وبعينين جاحظتين، أمرر يدي كفُرشاة رسم على أوراقها، مبتسمًا أحاول البحث عن وجه الرّجل العجوز.

-12-

رسـائل أبـــــي

لم يكن..

أكثر من غياب، هذا كل ما كان يمثله رحيل أبي في ذلك الوقت.

نساء متّشحات بالسواد، أصوات بكاء وعويل، كلمات حزينة تشبه الغناء، لعجوز يبدو أنها اعتادت على ذلك، فهي الوحيدة التي لم تدمع عيناها قط، تستند بظهر منتصب على أحد الحوائط، تتوسط الوجوه لكونها هي مَن تدير قافية (العَديد) كما يطلقون عليه، كانت كلماتها أشبه بمَن يحفِّز ويزيد من حدة البكاء، تمتمات رجال وشيوخ تشي بجلال الحُزن وسطوته، أكف تضرب بعضها بعضًا تحسُّرًا على غياب أبي، أبكي فقط لكثرة بكاء الآخرين من حولي.

ما بين ليلة وضحاها، لماذا تغير وجه الحياة هنا؟ لماذا كل هذا السواد من حولي؟ إنه غياب لا أكثر، وبعد أن ينفض زحام الوجوه، أستطيع ممارسة حياتي كعادتها، هكذا كانت إجابتها وقد ترقرقت عيناها بالدموع، تهدّل وجه أمي سريعًا، انطفأ بريق الكحل بين جفنيها، لم تعد ألوانها زاهية، تعلو قسمات وجهها تجاعيد الزمن، أظُن انه كان ينتظر تلك اللحظات لينهل من حدائقها التي استعصت عليه كثيرًا.

لا جديد أذكره سوى رغبتي في رؤية أبي، قليلاً ما كانت تقول:(أصبر شويّة) بدعوى انشغالها ببعض أعمال البيت، وكثيرًا ما كانت تجيب بثقة:

(حاضر هخليك تشوفه، هو بلّغني إنه جاي في القطر النهارده) استعدادًا لرؤية أبي، أرتدي أجمل ثيابي وحِذائي الجديد، بينما مازالت أمّي تتوشّح بالسواد، فقط لا يهمّني شيء سوى رؤية أبي، وعودتنا إلى البيت جميعًا كما

كان منزلنا، يجلس معنا وينام في غرفته، يستيقظ مبكرًا للذهاب إلى مقر عمله، هكذا كانت رحلتنا إلى محطّة القِطار، انتظارًا لعودته كلّما أرهقتها برغبتي في ذلك، في الطريق تتعمد إبطاء خطواتها، نرتكن قليلاً إلى أحد المحال التجاريّة لشراء بعض الحلوى، قليلاً نمشي، ثم

تقترح عليّ أن ندخل إحدى الحدائق، متحججة بأن الوقت مازال كافيًا، الوقت يمضي وقد هدأت مشاعر الطفل بين أحضان رحلته، يأكل الحلوى، يلهو في الحديقة، ثم تنظر إلى هاتفها المحمول في شغف، تتوقف عن المشي وكأن خبرًا قد قرأته للتو وهي تقول: إنها رسالة من والدك، يخبرنا بأنه لن يحضر هذا الأسبوع لعمل لم ينجزه بعد.

تكررت رحلتنا الأسبوعية أو الشهرية إلى محطة القطار، كلّما عاودني الحنين إلى رؤية أبي، يتخللها شراء الحلوى واللعب في الحديقة، كما تكررت رسائل أبي من خلال هاتفها المحمول، يخبرنا بأنه يعتذر أيضًا عن الحضور، لقيامه بمأمورية في العمل قد تستغرق شهورًا أو قد تصل إلى العام، الأيام تمضي سريعًا، لا أرى منها سوى مُتعتي في انتظار أبي، وانتظار رسائله التي تخبرنا بأنه لن يأتي قريبًا.

توقفت أسئلتي قليلاً لمعرفتي السابقة بأن أبي مازال مسافرًا ويجب عليّ الانتظار، فقط استسلم الطفل مهزومًا أمام رسائل والده، وأمام ثورة السنوات التي خطّت بيديها شاربه، أورقت مشاعره تجاه فتاة أحبها، تشابكت يداه بيداها في طريق طالما مر به لشراء الحلوى واللعب داخل الحديقة، أشارت نغمات هاتفه بوجود رسالة من أحد أصدقائه، توقّف ليقرأها ضاحكًا (لن أحضر اليوم، لديّ بعض الأعمال التي لم أنجزها بعد).

-13-

عملية تثبيت

بالأمس..

القريب ربّما، لم يكن هناك ثمة ما يؤجج مشاعر القطيعة بيننا، أو أنها الحياة أثقلته بما لا يستطيع حمله، فأنّت أقدامه تحت وطأتها، حتّى أنه لم يعد قادرًا على الوصول إلى مكان ألِفنا الذهاب إليه كثيرًا.

أوجّه له التحية، يبادلني إيّاها بابتسامة، في إشارة منه لانتظار بعض الوقت، إذ يمنح بعض عطاياه في الطّريق، لصَبي أنهكه دوار ليل، تتلقّفه طاولة وأخرى، فاختلى ببعض ما تبقّى له من ليل بزاوية من القهوة، أو رضيع شَعر بدفء أحضان تتسلّل عبر أوردته، فاستسلم لها، وربّما فلاّح أرهقته شمس يومه، فاستجار بظل شجرة وترك لها حِراسة الحقل.

دقائق قليلة تصفّح خلالها قسمات وجهي، يبدو المكان رثًّا، إذا ما نظرت إليه بعين أم، لطالما أرهقتها نظافته، وقد تبارى فيه عبث الأوراق، رائحة الجوارب، بعثرت قِطع الأثاث والملابس بشكل عشوائي، دقائق قليلة دونما اكتراث بكل ما سبق، فقط كل ما يشغله، أن أُبادله رغبة برغبة، واحتواء باحتواء، إيذانًا ببدء رحلتنا معًا في عالم فضّي، يُصفّف شَعر أودية البراح بيد حانية، يُقيم أبراجًا من الحكايات، حتى أوّل ضوء لفجر جديد، إذ يبدأ انسحابه خفيفًا إلى الشّارع، ما إن يراني وقد ضجّت ملامح وجهي بسفر بعيد، أودّعه بقبلة في جبينه، وبمثلها يُصافح جبهتي على وعد بقاء.

سنوات ظللت ألمس دفء صداقته، ضرب الشّيب رأسي، لا أتمتّع برؤية واضحة من خِلال نظّارة بالكاد أتعرّف خلف زجاجها السّميك على أقرب الأشياء، أمشي مُعتدلاً لا من فخر ولكنّها عملية تثبيت لبعض فقرات الظّهر، جعلتني أستقيم واقفًا أو منحنيًا في أي وضع، ولكونه أحد وأهم أصدقائي،

لا زلت أذكره بكل خير، نعمَ (الصّديق وقت الضّيق) مقولة في موضِعها تمامًا، إذا ما انزلقت

بك الحياة يومًا وضنّت أن تمنحك بغيره صديقاً، فكفاك به مِنحة إلهية.

أعلم أن الهدوء بالنسبة إليه عالم جميل، لذا حاولت الاتصال به، لأخبره بأن المكان أصبح خاليًا، بعد نزول زوجتي وأطفالي لقضاء يوم بصحبة أبناء خالتهم بعيدًا، في رحلة قد تطول لساعات، أعلم أيضًا عزوفه عن أي مكان تصل إليه الحشرات والبعوض، لذا قمت برش المكان بأحد أنواع المبيدات، أطفأت له الأنوار الصاخبة لشعوره الدائم بأن أحدًا يتلصص عليه ويقرأ تفاصيل وجهه، لينقلها لأعدائه ويُصبح فريسة سهلة في أي وقت، ولمّا كان من عِناده، أُسرّ إليّ من أحد المُقرّبين له بقوله ساخرًا:(ده زي الفِريك ما يحبّش شريك) وكان على صِدق فيما ذهبت إليه أفكاره، ولمّا كانت رغبتي تفوق احتمال جسدي، أومأت إليه بجلسة من وهج الماضي، أفرغت ذاكرتي من دوّامة الإنفاق اليومي، ضيق ذات اليد، صور المُشرّدين عن ديارهم عبر الشاشات، الخوف من الغد وما يحمله، فأفغر فاه بابتسامة، وحلّق بجناحيه طيًا للطّريق، وما إن هبط إلى جواري، صافحت وجهه بقُبلة، بادلني إيّاها، إيذانًا ببدء رحلة أخرى في وطن بعيد.

-14-

لا أحد هُنا يبيع أوتارًا

مُتْعَــب..

على غير عادته، يغازل أطفاله وزوجته بحركات بهلوانية، تسخر من رتابة الأشياء من حولهم، يدير مفتاحًا سحريًّا لخلق جو مختلف عمّا يدور حوله، فتعود الحياة كسابق عهدها، طفلة تتلهّى بضحكات وألعاب، تفتح نافذة لدخول الهواء، تتلصص للبحث عن مواطن الجمال هُنا وهُناك، نعم، اغتالتهم اليوم لحظة دخوله، وكأنّها السّنوات مرّت ليشتعل البياض في شعر رأسه، يتحدّث قليلاً أو قُل لا يتحدّث من الأساس.

سنوات عمل لم يتقاعس خلالها عن أداء واجبه، صفحات عمله يملؤها البياض، خالية من أي جَزاء أو لفت نظر، مازال يحتفظ بحيويّة ونشاط الشباب، فقط هي لحظات مؤلمة، لكنها أشبه بعازف عودٍ تقطّعت أوتاره، انسحبت الأضواء، بدا وكأنه يحتضن عوده سيرًا على الأقدام، يتنقل بحثًا عن أحد المحال التي تبيع أوتارا دون فائدة، لا أحد هُنا يبيع أوتارًا، فقط كانت الضحكات هي ما يحصل عليه، وكأنه دخل عالمًا آخر، وجوه حديدية، تنطق لكنها جامدة الملامح، أصوات لآلات مختلفة، لكنّها كثرثرة ضجيج.

أتعبه السير دون أن يفقد الأمل في الحصول على ما يريد، محتضنًا عوده بين ذراعيه، جلس على أحد المقاهي، كأنه غريب يحْمِل غريبًا، تمتمات بعض المارة تشي بذلك، أهي آلة خشبية أم هي لُعبة؟! متألمًا لا يجد من الكلمات ما يحنو على أصحاب هذه الملامح الجامدة، فكيف لبشر أن يجهل ما هو العُود، وأي نوع من الموسيقى، بلمسات رقيقة تخرج ساحرة تحتل قلوبًا وعقولاً، فقط كان يريد أولا أن يحصل على أوتار لعودِه.

واصل السير، لم يفارقه العود، هُنا كان من الممكن أن يحصل على أوتار لعودِه، كطائر وجد ضالته بين الأغصان، كانت الأضواء ساطعة بألوان وحروف (الحفل الختامي لأغنيات الــ... الشهير)

يا لها من مفاجأة، الجميع هنا يستمع إلى أغنيات لا تخاطب القلب ولا العقل، فلا غرابة ألا يوجد بها أوتار لمعرفة مكان بيعها، أو الحصول على بعض منها لتكتمل أوتار عودي.

يتفقد وجوه المارة بشيء من الألم، جالسًا أتْعبَه السير إلى جوار أحد البيوت القديمة، اختلس النظر إلى عجوز، دَكّ في الأرض عصاه، ينظر هو الآخر إليه، وكأنّما يعرف مقصده، يبدو أنه مازال يحتفظ ببقايا وجهه القديم، مازال يحتفظ بملامح وطنه رغم الأسر والاحتلال، أشار عليه بالدخول، ليفاجئ بأعوادٍ وأوتارٍ كثيرة، لكنّ أحدًا لم يطلبها، وكأن سوقًا للموسيقى الجميلة قد انفض، لتحلّق في السماء رصاصات ودوي انفجارات تصم آذان الجميع عن سماعها، عادت الحياة لتدبّ بين أوصاله، محتضنًا عوده وقد اكتملت أوتاره، راقصًا يعزف طوال طريق عودتِه، فقط كان يريد أن يعلم الجميع هُنا مذاقًا مختلفًا للموسيقى، غير هذه التي تخاطب الأقدام، يريد أن تتحرر

وجوه المارة من طلاسم الخوف وعدوانية الحياة.

-15-

تكسيـــــر عِظام

أمر مُعتاد..

في مثل هذه الأوقات من العام، تمطر السّماء في نهار شتوي، كما أنه أمر معتاد أيضًا وجود مظلّتي التي تصاحبني أينما ذهبت صيفًا وشتاء، التحف بعض ثيابي الثّقيلة، فقط لتحميني في مثل هذه الأوقات، كي تحجُب سقوط المطر أن تصل إلى ملابسي، أحاول الحِفاظ بقدر الإمكان على هندامي نظيفًا، أسير بخطى متسارعة أعلى الرّصيف، بعيدًا عن بِرَك المياه التي خلّفتها الأمطار، في حركة عفويّة انحنيت لثني أرجل البنطال كي لا تصله المياه، نعم أشعر الآن ببعض الأمان، متقزّم داخل معطفي وأسفل مِظلّتي، لم تمنعني الأمطار من متابعة حركة المارة في الشّارع، إنها تشبه ابنتي في براءة وجهها، يفرك يديه كي يشعر ببعض الدّفء، يبدو أنّهما زوجين في مقتبل العُمر أو هما حبيبين، تحاول هي الأخرى النفخ في يديها كي تحصل على بعض الدفء أيضًا، توقّفا أسفل (تندة) أحد المحال التجارية المُغلقة وقد نزع معطفه وأسدله على كتفيها، جميلة هي مشاعر الحُب الصّادقة، تُدير ماكينة الأحلام باستمرار كي تزيل أحجار الطّريق، وددت لو أنّني اقتربت منهما حتّى لا مست أذنيّ أنفاس كلماتهم، فقط كي أستمد طاقة إيجابيّة تُحرّك ساكن الذّكريات بداخلي، فتركُض بحثًا عن مكان آمن لها، يُعيد شبابها من بين براثن أيّام قاسية، طاردتها حتّى عافت وجودها بيننا.

اكتفيت بالنّظر إليهما، بينما ذَهبتُ بمخيلتي بعيدًا، حيث تركت ابنتي مُقَطَّبة الوجه، ترمقُني بنظرات عِتاب لقلّة حيلتي، فمازالت بعض متطلّباتها للزواج كشروخ عميقة في حائط قديم، أحاول سدّها بأصابعي دون فائدة (بعض الملابس الخاصة بها، أطقم الصيني، البوتاجاز، الثلاّجة، تكاليف ليلة الزّفاف.....) بالرغم من محاولاتي الجادة للحِفاظ على هندام ملابسي، باغتني سائق أرعن، نتيجة توغُّله داخل بِركة ماء، ببعض المياه الطينيّة التي تطايرت عليّ يمنة ويسرة، كطفل شوّه كرّاسه ففض بكارة وجهها الأبيض بألوان قاتمة، أعادتني مما ذَهبتُ بمخيلتي إليه.

مازلت أسير أعلى الرصيف بالقُرب من أحد المقاهي، باغتني نداء أحد أصدقائي، أصر على شرب الشّاي حتى زوال الأمطار، وهو سبب لاستدرار بعض الذّكريات بحُجّة عدم اللقاء منذ زمن، هذا ما كنت أتوقّعه، دقائق قليلة جعلتني أكتشف أنني وقعت فريسة سهلة له في مثل هذه الظّروف، فلم تكن عزومته إلا من أجل مصلحة، هذا ما تيقّنت منه فيما بعد، بدأ حديثه بالشكوى من ضائقة مالية، ومصاريف الأولاد، دون إطالة لم أجد أمامي وسيلة للهروب، فاستجبت لطلباته تحت ضغط إلحاحه وأسلوبه ورقرقات عينيه، نعم لم أتعوّد على ردّ سائل في طلبه قدر استطاعتي.

هدأت الأمطار، ازدادت حركة المارة في الشّارع كمن دبّت فيه الحياة من جديد، لكن وفجأة اشتعل شِجار بين شابّين نتيجة مُعاكسة أحدهما لشقيقة الآخر، هذا ما أخبرتنا عنه حدّة الحديث بينهما في بداية الأمر، ثم تحوّل الأمر إلى سباب وشتائم، وشد وجذب وتشابك بالأيدي، تدخّل البعض لفض الشّجار، ووجدت نفسي في دائرة النّزاع، وإذا بأحدهم يرفع عصًا وينهال على الآخر الذي تفاداها، فشقّت جبهتي لأسقط على الأرض غارقًا في دمائي، جرح قطعي في أعلى الحاجب يلزمه بعض الغُرز، ممدّدًا على أحد الأسرّة في مستشفى حكومي قريب من مكان الحادِث، حاولت رفع حاجبي لأعلى، بينما تحاول ممرّضة القِسم ضمادة الجرح بلُفافة من القُطن والشّاش وشريط طبّي لاصق. بدينة كانت، تتحدّث بلُغة قاسية لشعوري بالألم، وكأنّي أتألّم من خدش سطحي لا من جرح غائر وسبع غُرز، ثقيلة الخُطى، لا تكاد تتحرك حتى تُحدث ضجيجًا بخطواتها على أرضيّة الغُرفة، على الفور تذكّرت زوجتي، انتفضت كمن تأخّر على موعد، لم يعُد لهندامي سبب، الدّماء كدّرت صفوه، حاولت سرد بعض ما طلبته زوجتي قدر الإمكان، ما تبقى من مال لم يعُد يكفي لكل ذلك، اختصرت البعض وتغافلت عن البعض بحُجّة أنّها أشياء بدت لي غير مهمة.

بمجرّد وصولي إلى باب الشّقة، طرقت الباب طرقات سريعة ومتتالية، ألقيت بجسدي النحيل على أقرب كرسي، بينما بدأتْ هي في استكشاف وسرد ما تُغلّفه الأكياس واحدًا تلو الآخر، كأنّها تبحث عن شيء ما بالتّحديد، وكأن علامات الأسى والتّعب على وجهي وما يكدّره من كدمات وجروح أمر عادي كانت تتوقّعه، بل كانت كلماتها تشي بسخرية ممّا حدث لي، بدلاً من انتفاضة مشاعرها حال رؤيتها لما أصابني، بل على العكس من ذلك، كمن أجرم في حق ولا بد من عِقابه، فوجئت بمعاتبتي وتوبيخي لإهمالي وتعمُّدي على حد قولها شراء ما يلزم لعمل(ماسْك) لوجهها من شرائح الخيار والزّبادي.

ابتسم القاضي قائلاً:(بس انت متّهم بضرب زوجتك؟)

ابتسمت أنا أيضًا:(بس أنا مش متجوّز يا سيادة القاضي)، وأخبرته بأنّني كنت اقرأ إحدى القِصص بعنوان (تكسير عِظام) ولكنّي أرى أنه كان يجب على بطل القِصّة بالفعل أن يُقدّم بلاغًا يتّهِم فيه زوجته بالقتل.

-16-

لعلّي أكون أكثر اتزانًا

يمتـــد..

كأفعى في انحناءاتِه، تُغازله البنايات القديمة من بعيد، تفصلها عنه أشجار تحفظ تاريخ هذه القرية، كبيرها وصغيرها، من هُنا مَر كل مَن رحل عن دنيانا في رحلته الأخيرة، من هُنا مَر أبي كثيرًا، طالما كنت أنتظر عودته مساء، محمّلاً بخيرات من الحلوى والفاكهة، من هُنا مَرّت دعوات أمّي تمهّد الطّريق لخطواتي، من هُنا مَرّت الأحلام سريعًا دون أن تترك لنا مساحة من الوقت لانتظارها.

تسللت صباحًا، أتسلّق سلّمها الخشبي، يداي ترتعشان، أرنبة أنفي كوردة حمراء، أشعة الشمس تسقط فوق الرؤوس تطفئ ظمأ الأجساد إلى الدفء، أقف على أطراف أصابعي بالكاد حتى أعتلي بناية غير مكتملة، أتلمّس هواء الحرية يسقط من بين أجنحة الطير، تحرر جسدي من قبضة الشتاء قليلاً، وقد امتلأت جوانبه بكرات من عسل دافئ، أمشي فوق البناية في حركات بهلوانية دون أن تنزلق قدمي، أو يختل اتّزاني فيثير الضحك سقوطي على الأرض، ولربما سيدة هناك (تزغّط) البط وقد شمّرت عن ساقيها لتكون أكثر حريّة ورشاقة، إذا ما حاول ثائرً (دكر البط) النجاة بنفسه من تحت أقدامها أو ربّما هناك مَن هي متخفّفة من بعض ملابسها أو استسلمت لأشعة الشمس، ظنًا منها أنها في مأمن من عيون البشر، أضحك قليلاً ثم أعاود مرّة أخرى، لعلّي أكون أكثر اتّزانًا وثباتًا، فقط كان يفصلني عن اللعب بعض نداءات أمّي حتى تطمئن إلى وجودي سالمًا، أو ربّما صوت "عم ناجي" في هيئته الصباحية، كأنّك تسمع حلقات مسلسل إذاعي خالٍ من الإثارة

والتشويق لكونك تعلم مسبقًا تفاصيل الحلقة ونهاية الحوار، مهددًا ومتوعّدًا بأشد عبارات التوبيخ واللوم، تكاسل ابنه عن الخروج للعمل، هو ما يجعل مِزاجه ليس في أفضل حالاته، كما تأخذ نصيبها هي الأخرى زوجته لتستّرها عليه في السهر خارج المنزل حتّى الصّباح.

مازالت الأفعى تفرض سطوتها للبقاء، تغيّرت أشكالنا قليلاً، تغير شكل منزلنا هو الآخر، فلم يعد هناك متّسع لسطح، تكالبت عليه السنين، كما لم تعد هناك أمّي وسلّمها الخشبي لأتسلّقه،

استفاق من غفوته، تلفّت يمينًا ويسارًا، (أنا فين؟ وإيه اللي حصل؟) كل ما أذكره، تعثّرت قدمي في حصاة صغيرة على الأرض، حاولت الحفاظ على اتّزاني قبل السّقوط ولكنّي فشلت، كلمات قليلة، هي كل ما جادت به أنّات قلبه واختناق صوته، يضحك قليلاً ثم يعود للبكاء، لقد خانه الطّفل الذي ظل يسكنه، متسلّقًا سلّمًا خشبيًا، يداعب الطيور في أماكنها، وقد امتلأ قلبه بكرات من عسل دافئ، متحررًا من قبضة الحُزن، لقد خانه الطّفل الذي طالما ظل محتفظًا باتّزانه طويلاً.

-17-

ضاقت بأشواك رغبتها

مــع أوّل..

ضوء لفجر جديد، تراه وقد خرج هو الآخر بحثًا عن رزق يومه، يطمئن أوّلاً على سلامة حِذائه مما قد يكون أضر به، ليس لشراء آخر لا سمح الله فهذا أمر مستبعد رغم انسحاقه تحت أقدامه ليل نهار، ولكنّه ربّما يجد وسيلة لإصلاحه تكفي لأيّام بل وأسابيع قادمة، كما أنه لا ينسى نرجيلته الخاصة، ليأنس بها في أوقات راحته مع تناول كوب من الشّاي، فقط هي مَن يحاول تلميعها وتنظيفها من أي تلف قد يُعكّر مِزاجه طوال اليوم، انحناءة ظهره التي تمتد افقيًا بشكل غير مُعتاد، قِصر قامته هو الآخر جعله مصدرًا لسخرية بعض الأطفال ممن اعتادوا تبادل الكلمات معه انتظارًا لردّة فعله التي لا تخلو من كلمات بذيئة حتّى ينصرفوا عنه.

بالأمس القريب كان الحديث عنه هو الأكثر تداولاً على ألسنة من حضروا ليلة زفافه وقد بدا بوجه رُدّت إليه سنوات الصِّبا، يحاول قدر المستطاع إقامة ظهره ليبدو أنيقًا في صور الزّفاف؛ حتى لا يبدو كفأر صغير إلى جوار زوجته التي تمتلئ بفائض من اللحم وطول يظهر قِصر قامته كثيرًا.

متأخرًا يعود وقد سلبت قوّته جبال من الرّمل وأهرام من الطّوب، يحملها صعودًا وهبوطًا، قليل من الطعام يكفي كي يواصل عمله، لا ليس لامتلاء بطنه بل حتّى يدّخر قدر المُستطاع ممّا يحصل عليه من مال، كما كان لنرجيلته نصيب من صداقة ضعفه وهُزال جسده، ضاقت به زوجته تحمّلاً لبخْله الشّديد.

تغيّرت خارطة الأيّام لتُصبح مهنته ماضيًا أسدل عليه السّتار، بعد أن حدثت طفرة كبيرة في عالم المِعْمار وتحمّلت الأوناش عبء ما تئن لحمله أكتاف الرجال بأقل مجهود، فقط كالأفعى استطاع أن يجد مأمنًا لحياته وما طرأ عليها من متغيّرات، حاول أن يطوّع أفكاره في خُبث لم يتوقّعه أحد، أصبح أشد بُخلاً مما كان، ذاع صِيته في جمع مال الرّبا أكثر من شهرته قديمًا، ثقُلت خطواته، لانت عِظامه، تخدّلت عضلات ساقيه، لم يعُد قادرًا على تحمّل مشقّة العمل، نظرت إليه تُعاتبه حيث لا صوت يسمعه الآن..

-18-

لم تُغادر طفولتها بعْد

شـــددت..

رحالي يومًا إليها، لذا كان واجبًا عليّ تحسّس بعض أخبارها ممن أخدتهم ندّاهة الشّوق إليها، فأنّت ظهروهم من حمل حقائبهم طويلاً في طريقها، ومما دفعني إليها كون أحد منهم لم يَعد إلا وقد أصبح راهبًا في محرابها، لا يجد صعوبة في الحديث عن مفاتنها كمن يستظل بسماء جديدة بالحديث عنها، أو يطرق أبوابًا أُغلقت في وجه الكثيرين، فتُفتح من أجل عينيها، كانوا كالأطفال يتسارعون في وصفها، ليثبت كل منهم لنفسه وللآخرين مساحة الأرض المحتلّة منها، أماكن تحركاتها، وفي أي اتجاه، كيف تختار من تُحب، طريقة مغازلتها، أي الأوطان يروق لها أن تسكنه، نعم، كنت على يقين بأن رحلتي قد يتخللها الكثير من العقبات، لكن لذّة الوصول دائمًا لها سحر دفء ليالٍ شتوية بين أحضان من تحب، أو كمن أفاق من غيبوبة نتيجة اصطدامه في حادِثة سير على الطّريق أو نتيجة ارتفاع معدّل السّكر في الدم، انكشف ستار جفنيه عن بعضهما لبعض، فبدا له وجه الحياة جميلاً أكثر مما كانت عليه سابقا.

دقات الساعة الثانية صباحًا، لا توجد رغبة في مشاهدة المزيد من الأفلام أو قراءة الصّحف، استسلم صخب الليل لابتزاز ندائها، هرولتُ إليها كطفل غازلْتَه بلُعبة فسار معك حافي القدمين، دون أن يسأل اتجاهك إلى أين، فقط كانت رغبته الحصول على اللعبة بأي طريقة ومهما كلّفه ذلك من تعب.

كثيرًا ما يجتاحُني شعور بأنّها لم تُغادر طفولتها بَعْد، أو ربّما أصابها شطط كي تحاول صيد طائرة حربيّة في سماء مدينة سرقها اللّصوص، كانت الحفاوة

بقدر استقبال الملوك والأمراء، ترتدي من الثّياب أكثره حشمة ووقارًا، صوتها العذب ولغتها الرقيقة، لا يجعلان من جلستها كإلقاء محاضرة عن الغزو الأوربي لتاريخ بلادنا، أو تأثير السلوك العدواني على الطفل، ولكنها كثيرًا ما تحاول خلخلة الحديث بأغنية أو بابتسامة، كعروس البحر ترقص على صفحة الماء، تراودني عن نفسها، أسافر لأجلها أميالاً حتى نلتقي،

أغيب داخل عالمها فتغيب هي داخل عالمي، نجوب البلاد بحثًا عن لذّتنا المفقودة، نعتلي قمّة جبال الحلم حتى تتورّم أقدامنا، لكنّه الشعور بأنّك دون أثقال على كتفيك، يجعل من المسافات الطويلة تشكو تقزّمها، نرسو بقارب أشواقنا قليلاً، نصافح وجوه مَن رحلوا، صافية هي السّماء فوق رؤوسنا، نرسم فيها بأقلام نشوتنا بيوتًا، نقرأ فنجان قهوتنا بما يجعلنا أكثر حريّة، نعود من حيث أمست خطواتنا، يعلو صوت آذان الفجر، أتركها على وعد بلقاء، تتركني وقد نزفتْ رحيق دمائها بين أصابعي.

-19-

لُغة البحر

انقطع..

حديث الأصدقاء بيننا، قليلاً تجاذبنا أطرافه، نتنقل ما بين أخبار العمل والزّواج وزيادة الأسعار وبعض جدال حول صحّة هدف إحدى مباريات أمس، لا أعلم كم مر من الوقت، حتى استسلم صاحبي لنوم عميق دون سابق إنذار، يبدو أنّه مُحق فيما أخبرني عن شعوره بالدفء والطّمأنينة، إذا ما ظل يتحدّث شخص إلى جواره، وفي حال لم يتحقّق له ذلك، أدار مفتاح الرّاديو للقيام بتلك المُهمّة.

هدأ المكان إلا من صوت التلفاز، ظللت أتابع بعض ما يبثه، بحثًا عن التسلية وخلخلة لبعض الوقت لا أكثر، طالما ظللت متيقظًا وقد جفاني النّوم لليلة شَعُرت خلالها بغُربة عن المكان، لكونها المرّة الأولى لسفر بعيد، الزمني ببعض ما لم أتعوّد عليه من قبل، كأن يُشاركني أحد طقوس ما قبل النّوم، أنفاس أخرى تسكن إلى جواري، صوت شخير عالٍ، إضاءة خافتة، شعرت ببعض الانقباض والرهبة، بدأت أتصفح بعض أوراق كتاب بجانبي، لعله يزيح عني بعض أجواء الوحدة، وعملاً بمقولة (الكتاب خير جليس) ومن صفحة لأخرى أصبح تعاقب الأحداث داخل التّلفاز محض بقايا زمن قديم، لا سيّما وقد توارى صوته بعيدًا، كأن أحدًا شَعُر باحتياجي لقليل من الهدوء، فراح يضغط بإصبعه على زر إغلاق الصّوت.

كان الوقت مناسبًا لقراءة المزيد، دقائق قليلة توقّفت خلالها عن القراءة، فقط، أستنهِض عزيمتي إذا ما أصابها وهنٌ ورغبة في النّوم، لا سيّما والقليل مما قرأته، أرّقني لاكتشاف ما اكتنفته تلك القصّة من خبايا، وما بين غفوة وأخرى، تذكّرت أمّي، مسترشدًا ببعض كلماتها، إذ كانت تؤمن بأن البيت آمِنٌ

في ظل أصحابه، مُستنكرة بأشد عبارات الأسى ما حدث، وأن تدخّل البعض لعودة ما كان بينكما، قد يجعله من زجاج تعرّى خَلفه كل شيء، واستسلم لنظرات العطف ربّما أو السّخرية، بناء البيت وتثبيت أعمدته، يحتاج كثيرًا من الصّبر (مازال الحديث لأمّي) تحرّك قليلاً تجاه

النّافذة، أشعل إحدى سجائره، كمن يُريد أوّلاً خلق مناخ أفضل.

بدأ حديثه مُحتدمًا في أوّل الأمر، ثم عاد لهدوئه سريعًا، لشعُوره ربّما بارتفاع صوته دون الحاجة إلى ذلك، قاطعْته قليلاً، تصنّعت احتياجي لبعض الشاي، وبخطوات واثقة، تركت لأقدامي أن تتجوّل يمنة ويسرة، كأحد سكّان البيت والعالم بكل خباياه، أتصفّح بعض ما جادت به خطواتي من أثاث وصور، إحداها لا تحتاج لشرح لكونها صورة زفافهما، وأخرى تبدو فيها زوجته، تُداعب موج البحر بأقدامها، بينما هو يسترخي تحت إحدى المظلات، يُتابع صوت لُغة البحر وما باحت به.

ما من أحد هُنا، أخبرني بذلك، فقد خرجت زوجته غاضبة رفقة طفليها قاصدة بيت والدها، إثر مُشاجرة تعدّدت وجوهها في الآونة الأخيرة، تناول منديلاً ورقيّا يُحاول عرقلة طريق دموعه السّاخنة من الوصول إلى وجنتيه، وقد تحشرج صوته ببكاء أشبه بانكسار مهزوم، ثم استرسل قائلا: تعثرت قليلاً في عملي، لم أفِ لها ببعض ما وعدتها، فراحت تنهال علىّ بسهام نظرات تخيّلتها أنيابًا تمزّق لحم براءتها، أشاحت بوجهها كثيرًا، معللة ذلك بكونها لا تستطيع تحمل ضيق ذات اليد، حتى طلبت الطلاق في لحظة هي أشبه بكابوس، أظنني لم استفق منه بعد.

تململ في جلسته، ربما كان في احتياج إلى أن يقف أمام مرآتِه قليلاً، أفغر فاه بتثاؤب يشي برغبة في النوم، وبحركة آلية طرق فاه طرقات مُتتالية بأصابع يده اليمنى، أعقبتها أيضًا بتثاؤب، وكأنه مرض تسلل إليّ من عالم إلى آخر، أغلقت الكتاب غير مكترث بما ذهبتْ إليه بعض تفاصيله القادمة، فقط، استسلمت لرغبتي في النّوم، قبل أن يباغتني صوت آذان الفجر:(الصّلاة خير من النّوم).

-20-

أصابع العَـــوز

تحت ضغط..

إلحاحها الشّديد ومعسول كلماتها الناعمة أحيانًا، والتي تَجيدها ببراعة أو كما يُقال: (تعرف من أين تؤكل الكتف) واللّاذعة أحيانًا أخرى، تفككت قسمات وجهه الغاضبة وقد أبدى موافقته المبدئيّة على التّقدم لشغل وظيفة ما في أحد الشّركات الخاصة، ربّما كان ذلك سببًا لمضاعفة دَخله الزهيد من عمله الحالي، وإعادة ما كان بينهما من حياة هادئة.

بوجهها الصّبوح أشرقت فتاتهما الصّغيرة بعد قسط من نومها، كان من شأن وجودها تهدئة الموقف دون أن تتصاعد أبخرة من فوّهات كلماتهم المحتبسة ضيقًا، مداعِبة راحت زوجته تقرأ من كتاب في يدها، بينما هي جالسة أمام شاشة التلفاز كأنّما توجه كلماتها لطفلتها الصّغيرة: أي الأمثال يتّفق مع مقولة لا تستطيع بمفردك فعل كل شيء؟ بعفويّة الأطفال قالت ابنتها:(القفّه اللي ليها ودنين يشيلوها اتنين)

راح بدوره يرفع حاجبيه أعلى عدسات نظّارته، متخابثًا ينظر إليهما دون إشارة منه لرد فعل كان من شأنه تغيير مسار الحديث أو مشاركته لهم.

سنوات من العمل الدؤوب جعلته أكثر التزاما وحرصًا على المواعيد، فكان أوّل الحاضرين إلى مقر الشّركة، متأبّطًا حقيبة سوداء، انتفخت بطنها لكثرة ما تحويه من أوراق، وكتاب يأنس به إذا اشتد به الملل انتظارًا، لا سيّما وقد استعد هو الآخر سلفًا دون علم زوجته للتقدّم لنفس الوظيفة، وقد أضمر في نفسه تراجعًا عمّا اتفقا عليه ولم يُخبرها بأن اليوم هو الأخير لتقديم الأوراق وإجراء المُقابلة، وأنّه فقط كان واجبًا عليها أن تُتقن فن ترشيد الإنفاق ضد موجات الغلاء المستمرّة، والتّنازل قليلاً عن بعض احتياجاتها الغير ضروريّة من وجهة نظره.

(صباح الخير يافندم) تحيّة تتصاعد تدريجيًا من شخص لآخر، خطوات واثقة تقطع طريقها إلى حُجرة لا تفارقها العيون حتّى إغلاق بابها، نعم يبدو أنه صاحب الشّركة، تصاحبه رائحة باريسيّة النكهة، بمجرّد سماع دوي الجرس، يتعجّل السّاعي يحمل قهوته الصّباحيّة بعد أن

اطمئن على نظافة هيئته ولمعة حِذائه.

ثمة سكرتيرة ممتلئة القوام، طاغية الأنوثة، تحاصرها النظرات تباعًا كلّما تحرّكت يمينًا أو يسارًا في محاولة منها على ما يبدو لتخفيف حِدّة الانتظار أو هو عطش البعض منّا لابتزاز عواطفه الكامنة تحت أغطية من الجري ليل نهار بحثًا عن لقمة العيش.

بدأ العد التنازلي للدخول تِباعًا، راح يقلِّب بعض أوراقه للتأكّد من سلامتها، مكتفيًا بعمل بعض المكالمات الهاتفيّة لاعتقاده بأهميّتها في هذا التوقيت، تفكيكًا لاحتمال انتظاره لمدّة أطول، قاطعه صوت السكرتيرة الحسناء بندائها الذي يشبه أنغام الموسيقى في نهار ربيعي:(اتفضّل يافندم).

خطوات قليلة كانت كفيلة بجعله بين يدي صاحب الشّركة، قابضًا ما بين إصبعيه بنوع فاخر من السّجائر، عاليًا يسمع صوت أنفاسك، إضاءة تفكّك عزيمة الغريب بدخول مدينة لا يعرف أحدًا فيها، تدريجيًّا فارقني ذلك الشّعور بعد حِوار بسيط تخللته بعض الكلمات الرقيقة متسائلاً عن سبب التقدم للوظيفة، واكتمال الأوراق المطلوبة، ثم أردف قائلاً: موفّق إن شاء الله.

تركت ملف أوراقي أمامه، تحملني قدماي خارج المكتب دون إشارة منه بالقبول أو الرفض، هي مجرّد محاولة لا أكثر، كلمات ربّما تُهادن رغبتي حال لم يُحالفني الحظ في الحصول على الوظيفة، إلا أنّها في حقيقة الأمر كانت ضمادة على جرح طالما ظل يُدمي حياتنا كلّما امتدّت إليه أصابع العَوز.

ابتسامة رقيقة ربّما تخبئ بين طيّاتها رغبة في شيء ما، حتّى وجدتها طوّقتني بذراعيها دون خجل أمام ابنتها الصّغيرة، الأمر الذي لم تعتد عليه أو كان من طبيعتها استحضار تلك اللحظات الرّومانسيّة إلا فيما ندر، أفصحت عن سر ابتسامتها سريعًا وقالت: إن رسالة من الشّركة أخبرتها بقبولها للوظيفة، لم أتمالك نفسي ضَحِكًا وأنا أخبرها أن تقديم الأوراق كان يتطلّب الحضور وإجراء المقابلة وهذا لم يحدث، حاولت تأكيد كلماتي لها وأنا أفتش عن أوراقها داخل حقيبتي كما أكّدت لها، لأجدني وأنا في لُجّة اندهاشي، خطأ قدّمت مَلف أوراقها، لتعجّلي في الخروج كمن ضاقت أنفاسه وأراد أن يتحرر، فأطلق لقدميه عنان الطّريق.

سرعان ما تَحوّل عِناقها هجرًا وقد تراجعت لمسافة تسمح لها بالتأكّد من صحّة ما أقول، أو ربّما هي إحدى مُداعباته لها، إلاّ أنّها وبعد تأكّدها من صدق كلماته، لم يثنها ما حدث ولم يكمّم هدير انفجارها ضحِكًا، ومواصلة الغِناء والرّقص على أنغام موسيقى تستمع لها وحدها.

-21-

يتلكّأ لُمغازلتـــي

سنوات..

تلك التي مرّت كأنها رحلة لا هي في متنزّه ولا هي في طريق وعر، فقط كانت أشبه بحالة سائلة تسير كما هو مقدر لها، هادئة لبعض الوقت، ودافئة لوقت، وثائرة تعافت من رتابتها قليلاً، ثم استكانت كحرب تُأججها لحظات عطِشة، قلّما إن وجدت.

متتالية لسعال جاف صباحًا، وكأنها دقّات ساعة، تنبئ عن خلخلة للصمت في هذا المكان، جالسًا يتدلى على ركبتيه انتفاخ بطنه المترهلة، عاقرت حدائق عمره المسكنات وأدوية الضغط والسكر، زوجته هي الأخرى تراجعت نضارتها كثيرًا، بينما هي مشغولة بتصفّح بعض مواقع الإنترنت كعادة جلساتهم معا، ذلك الآخر الذي اقتحم عالمنا بكل جرأة ووحشية، لتقطع عليه انغماسه في قراءة الجريدة وسألته: (شايف الفستان ده ؟ هيبقى حلو عليّ مش كده؟) نظر إلى ما تشير إليه داخل هاتفها المحمول، بكلمات قليلة أجابها: (انتِ حلوه على طول يا حبيبتي).

لم تكن إجابته كافيه، كانت تود أن يمتد حبل الحديث بينهما، للخروج من سجن الخيال الذي تعيشه داخل هاتفها المحمول، تسترق النظر إليه من وقت إلى آخر في حديث صامت خلف نظارتها الطبيّة التي لا تفارق عينيها: لا لم يعد هو، كان دائم الابتسام، لا تفارقه دقائق معدودة إلّا وينبش في الذّاكرة عن موقف أو حدث يتلكّأ من خِلاله لمغازلتي، هل أصبح ما بيننا عجوزًا لهذه الدّرجة، لا يثور من أجل شيء ولا يبالي بشيء؟ هو الآخر يحاول أن يجد متنفّسًا للحديث بينهما، بعيدًا عن أخبار السياسة والرياضة وغلاء

الأسعار، قاطعًا خلوتها داخل محتوى هذا الإطار الحديدي (صفحات عروض الأزياء، ومواقع الطبخ، إطلالات نجوم الفن، تصفُّح بعض صور الزفاف).. سألها: تفتكري أنا ممكن أخِس؟ بابتسامة عريضة جعلتها تتكئ للخلف في جلستها: انتَ لسه فاكر؟ إجابتها جعلته يشعر بضيق المكان وانحسار الهواء رغم نوافذه المفتوحة، عاد ليتصفّح بعض صفحات الجريدة مرّة أخرى، يختلس النظر إليها هو الآخر في حديث صامت طويل: لا لم تعد هي، كانت كلماتها أشبه بغِناء

جميل، يُرتّق جروح الزمن بخيوط براءة وحُب، ماذا حدث؟ لعلّ سماء أيّامنا تحجّرت فيها أحاسيسنا فلم تعُد تمطر أو لعلّ قطار الحب أفرغ كل ما فيه حتى وصل بنا إلى هُنا.

رشيقًا يخطو تسبقه رائحته الزكية، بعدما أنهى مكالمة لأحد أصدقاء العمل، كان قد استأذن منها ليحدّثه بعيدًا قبل أن يجلس أمامها، كانت عيناها تنظر إليه لكنها في الحقيقة كانت في زيارة لمكان ما، حاول مداعبتها برقة لا تُخفي فضوله، وضع كف يده أمام عينيها ملوّحًا يمينًا ويسارًا وقال:(إنتِ فين؟) ابتسمت وكأنّها عادت للتّو من رحلة طويلة، مدّت برفق يديها تزحف على الطاولة لتعانق يديه وهي تقول: مكان لا أريد الذهاب إليه مرّة أخرى.

-22-

هزائم قديمة

منذ زمن..

اعتدت أن أصافح وجهي صباحًا بابتسامة، هي في الغالب رسالة، مفادها أنّي مازلت على قيد الحياة.. أحلم، أحب، أكره، أدق أديم الأرض بخطوات ثقيلة، أحفظ من الأسماء الكثير ومن الوجوه أكثر، تزوجت ولي من الأبناء ثلاثة، أعمل قدر استطاعتي، هربًا من ضيق ذات اليد، وذاكرة تحتفظ ببعض هزائم قديمة.

تُشير دقّات ساعة الحائط إلى السّابعة صباحًا، فنجان قهوتي المعتاد، أطالع بعض أوراق جريدة يومية، أحرق ما تيسر لي من سجائر هي كل ما تبقّت صامدة من ليلة أمس، فيستحيل المكان بؤرة ضبابية، إذ لا أتمكّن خلالها من قراءة بعض تفاصيل غُرفة مكتبي كاملة.

دقائق هي لا أكثر، أتصفح بعض رسائل هاتفي وبعض إشعارات الأصدقاء لأعمال جديدة أو تهنئة بعيد ميلاد، وربّما هو خبر لغروب شخص ما عن عالمنا، إجراء بعض مكالمات هاتفيّة، أعتقد من الأهمية إجرائها الآن، قبل شروعي في شحذ همتي للوقوف على قدم واحدة، ليس من قبيل خِفّة أو إظهار رشاقتي، فقط هي وسيلتي المُتاحة، لا سيّما وقد نفد رصيد إحداها من الرشاقة، اثر حادثة، أَرغمت خفّة الطّير أن تترجّل، كعجوز أتى الشّيب على أوتار قيثارته، فغدت تعزف أنينًا، لزمان أشاح بوجه نضارته واستحال أرضًا قاحلة.

كم هي مُخادعة ذاكرتي في الآونة الأخيرة، اقتضب وجهي قليلاً، إذ تذكّرت للتّو وبمجرّد اعتدال قامتي باتّجاه النّافذة، وجود حَفر كبير بامتداد الطريق، داومت عليه طيلة سنوات للوصول لمقر عملي بأقل مجهود وأقل وقت، ربّما

كان لإصلاح بعض خطوط الغاز أو الكهرباء، أعتقد ليس من الضّروري الآن وضع تصوّر لما يحدث، عليّ فقط اتّخاذ طريق آخر، حتّى وإن أضاف مئات الأمتار لما أعانيه من الألم.

أطال النّظر بعيدًا خارج النافذة، وتلك البُقعة من أديم الأرض، إذ راحت تتلقّفه الذّكريات يمنة

ويسرة، صغيرًا ما إن ينهي عامًا دراسيًا، حتّى يتنقّل من عمل شاق لآخر، يغفو منهك القوى، إلا من قليل بالكاد يكفي زحف قدميه حتّى فِراش نومه، دون أن يعبث بخاطِره ثمة حلم باللعِب وصيد الطّيور كبقيّة أصدقائه، تتسابق الذّكريات تنفض غُبار وجهها كلّما اقتربت، فيغدو الطّفل كهلاً، يتأرجح ماء عينيه حتّى تجرّعته أنسجة أكمام جلبابه، كلّما مرقت على وجنتيه، تُقلّنا إحدى عربات الكارو كقطع الأثاث المُتراكمة أعلاها في وضع عشوائي، نزوحًا إلى منزل آخر، لا سيّما وقد صارع إثر وفاة جدّي، جيش من الأحفاد يزأر في وجه أبي، طلبًا بميراث له في بناية مُتهالكة لا تتعدّي بِضع أمتار.

لحظات، أعقبتها نصف ابتسامة، انتحى خلالها جانبًا لشارع آخر، ليهبط كطير أزاح كل ما تبقى من هواء عالق تحت جَناحيه في ساحة الحلم، وربّما هي الأقدار تمنحنه فرصة، كي يطالع وجه شرفتها، وذاك الفتى العشريني الواثق في خطواته، خفيفًا كعصفور في أوج حريّته ذهابًا وإيابًا، محمّلاً ببعض انتصارات صغيرة..

ابتسامة أو نظرة وربّما هو فتح كبير، إذا ما تحدّثت إليه ببعض معسول كلماتها ووعد بلقاء، هو أشبه باقتناص لؤلؤة من بين فكي طير جارح، وما بين خطوة وأخرى والتفاتة وأخرى، إذا بيد تربت على كتفي في حنو جميل: (إنتَ إتأخرت على معاد الشّغل، كنت سرحان فين؟) كلمات كحبّات النّدى، مبتسمًا التفتُّ إليها وأردفت قائلا: (أنا كنت ماشي تحت بيتكم القديم، ولسّه راجع).

-23-

مسدّس برمودا

قد تحمل الصّور..

بعضًا من إجابات لأسئلة عن أماكن وشخوص، كانت تقف يومًا تبتسم أو كانت تحلّق في سماواتها طيور، أصابتها بغير قصد لحظة قنص لتستقر داخل إطار خشبي صغير، نعم ذلك الإطار يحمل صورة زفاف أبي، سيعدًا يبدو رغم معارضته للزّواج في سن مبكّرة، ورغم هروبه في تلك الليلة وتأخره عن موعد الزّفاف وتلقّي الكثير من الشتائم والعِتاب، يبدو أيضًا وجه أمي نضرًا في ثيابها التي كانت تناسب ذلك الوقت، فلا هي أُرهِقت لساعات تحت وطأة يد مصفف شعر ومساحيق، ولا هي انتظرت طويلاً حتى يفرغ صانع الأزياء من انتهاء فستان العُرس.

سنوات لم ألتفت لمثل هذه الأشياء التي تخرج عن كونها أسئلة إلى قراءة بعض التفاصيل في وجوه الآخرين، مثلاً كان جميلاً أو كانت جميلة، تبدو ملامحه وكأنّه ذو أصول تركيّة يكسو وجهه احمرار وشارب كثيف، أو كان شعرها ينساب على ظهرها كنوع من التّباهي بشاب وحيويّة، إلاّ هي وكأنّها ولدت شاحبة الوجه، مترهّلة العضلات، نَحُل شعْرها إلا من القليل، تسلل إليه الشّيب فتركه دون ذكرى جميلة، تتناقلها كلّما مر الزمان وحط على كتفيها بأصابع ثقيلة.

لم يكن ليشغلني في ذلك الوقت تلك التفاصيل التي توقّفت للتّو أمامها، فكل شيء كان طبيعيّا بالنسبة لي، طفل يلهو في محيطها باحثًا عن ضالّته من السّعادة والدّفء، تداعبني على ركبتيها ببعض كلماتها التي تحفظها قبل النوم:(نام نام يا حمام وادبحلك جوزين حمام) أو سرد بعض الحكايات التي

كثيرًا ما كانت تستهويني، لكونها تجعلني دائم التحليق والتحرر في سماوات عوالم أخرى، بعيدًا عن منزل فقير تشقّقت جدرانه الطينيّة في صراعها مع الوقت، يحاصره نقيق الضّفادع ليلاً، كلاب تجوب الشّوارع بحثًا عن بقايا طعام.

لا اعتقد أنّه يوجد رابط ما بين مثلّث برمودا وحكايات جدّتي، على العكس تمامًا بالنسبة لي، فكلّما سمعت حديثًا عن مثلّث برمودا؛ أتذكّرها يوم أُرهقت من السّهر ومشقّة العمل طوال يوم شتوي ما بين إعداد طعام وخبيز وتنظيف، فيما كنت أطالبها بقص بعض الحكايات كما كانت عادتها، ولكنّها طالبتني بوضع غِطاء ثقيل فوق جسدي قبل النوم هذه الليلة، متحججة بأن الشّتاء لم ينته بعْد، وأنه مازالت فيه بقيّة باقية من شهر برمودة، تضرب في الجسد كالرّصاص، وكأي طفل مشاكس قاطعاتها وقلت:

(هو برمودة معاه مسدّس ياجِدّه علشان يضرب بالرصاص؟) ضحِكت لعلمها بأن وسيلتها لم تفلح معي.

حالة من الوجوم تتصدّر المشهد، صندوق خشبي يحمل جثمانها المُعطّر، وجسدها الملفوف بلفافة بيضاء كقلبها النقي، لحظات صمت أطبقت على الجميع إلا من تنهّدات صدور ودموع، بينما أنا واقف كقول الشّاعر:

إنّي لأفتح عيني حين أفتحها ××

على كثير ولكن لا أرى أحدا

هي فقط كنت أجثو على ركبتيها، أسبح في حدائقها، تلقمني أنفاسها المُعطّرة بمسك، وحكاياتها التي طالما كنت دائم التّحليق في سماواتها.

-24-

وجهًا كانـــت تألفُه

لم يجد أمامه..

سبيلا آخر لكسر رتابة ما بينهما من كلمات يغمرها شوق، لم يجد أمامه سبيلاً آخر، كي يفتح نافذة ظلت تحجب خلف زجاجها أمنيات وأحلام، اليوم نكتفي بما جادت به كلماتنا من شوق، اليوم نكتفي بتقبيل اليد التي شكّلت من حولنا وجه الحياة حديقة غنّاء.

الأيام في تتابعها تشدو برغبة في اللّقاء، فكانت رسالته إليها، بالفعل تجتمع أفكار المحبّين على السّكن في وطن واحد، هي الأخرى كان يدفعها إليه شوق ولكنّها كثيرًا ما كانت كأي امرأة شرقية يُكبّل رغبتها كبرياء وتقاليد، تحيل صحراء القلوب قاحلة دون ماء، وتحرم أن يطرق باب أنوثتها غريب، فكانت موافقتها بالنسبة له خروجًا عن المألوف، وصوت موسيقى في وطن كاد أن يضجر بساكنيه.

تخلّص هو من ثِقل خطواته، بدأ يفكّر في لحظة اللِّقاء، تصفّح كلماتها أزاح إليه، التي طالما حملت بين طيّاتها رائحة عِطر أدمنته أنفاسه، وتقاسمت كلماتها مدينة لا يسكنها غيرهم، همّت بالخروج في أبْها صورها، تُغازل في المرآة وجهًا كانت تألفه، خطواتها كفراشة تُحلّق دون قيد، ترتدي حِذاء ذو كعب عالٍ مدبّبٌ تكاد به أن تغوص في أسفلت الطّريق، تحررت خُصلات شعرها كثيرًا تزاحم نسمات الهواء في اختراق رغبات المارّة يمينًا ويسارًا.

دقّات السّاعة في يده، تكاد أن تضيق بكثرة النظر إليها، كأنّها اليوم تمضي بغير انتظام أو كأنّها تتلكّأ عُنوة أو كيد في لِقاء تمنّت ألا يكون، ساخرًا مما ذهبت إليه أفكاره عاود النظر إلى ساعته، نعم لقد حان موعدها، انتظرت

قليلاً، انتظر هو الآخر قليلاً، مرّت أمامه دون أن يشعر بها، مرّ أمامها كأي رجل آخر، لعلّها صادفت أمرًا غير متوقع جعلها لا تأتي، أو لعّله قد تأخر لسبب دون رغبته.

حدّقت في صُورتها، تجاعيد وجهها تملأ استدارته، حدّق هو في صُورته، احتضار الضّوء

في عينيه يجعله لا يكاد يفتحهما إلا ليرى فقط ما على بُعد خطوتين، فلا هي ولا هو، غريبين حاولا استنساخ وجهيهما من خلال رسائل شوق، ليتها ظلّت بيننا عبر الهاتف المحمول، دون رغبة في اللّقاء.

-25-

هـــــــروب

مـا بين..

ليلة، لا ينقُصها حب وطمأنينة، ازدانت بعِطر أنفاس دافئة، وحياة هادئة، وليلة كسياط تجلده، يُصارع فيها بعض هزائمه، لا لشيء إلا لتمدد أصابع اليأس بينهما، كجرّافة أرض أحالت وجه طفولتها، حُطامًا من جُثث الأحلام.

ليلة تتسابق فيها الأمنيات حيثما كانا، وليلة تتعثّر في الخطوات خوفًا، رغم ركضه الدّائم حتّى تقطّعت أنفاسه وخارت قواه، إلّا أنّه ما إن ينظر للخلف، حتى يرى الحقيقة نصب عينيه، مازال في النقّطة (صفر) واقفًا، وفي كل مرّة كان (صابر) يدق رأسه صارخًا، فيستفيق من نومه، يتلمّس الأشياء من حوله، تتصاعد أنفاسه سريعًا، حتّى يطمئن أن ما حدث مجرّد كابوس، اعتاد الإطلال بوجهه ما بين ليلة وأخرى.

هكذا أصبحت حياة صابر، ما بين حلم، وكابوس، إلا أن الأخير استأثر في الآونة الأخيرة بنصيب الأسد من لياليه، فحلم جميل ليلة، يُقابله عشرات الكوابيس في ليال قادمة، حتّى أن لحظات نومه صارت تُفزعه، إذا ما وهن جسده بحثًا عن بعض ساعات لراحته، فكان عليه أن يظل مستيقظًا لساعات طويلة من الليل.

في طريق عودته، نادته إحدى المقاهي، ضجيج هُنا وصمت في طاولة أخرى، أشعل إحدى سجائره، تاركًا علبة السّجائر أعلى الطاولة، دقائق هي لا أكثر، موعد المباراة إمتى؟ (سأل أحدهم) هززت رأسي في إشارة بجهل ما يسأل عنه، حضرتك بتشرب سجاير ولا شيشة؟ (سأل مرّة أخرى) نظرت لما بين يدي، لأجد النادل وقد أحضر شيشة بالفعل، ثم تحوّلت بنظري بعيدًا عن مُتابعة حديثه، ما هذا التّخبّط؟(سألت نفسي) أظن أن ارتفاع الضّغط هو السّبب في ذلك، أشرت لأقدامي بالخروج، فلربّما حدث ما هو أسوأ، متّجها صوب إحدى الصّيدليات القريبة من المقهى، طلبت عُلبة من دواء ارتفاع الضغط، تذكّرت للتّو نفاذه، في الجّهة المُقابلة، سينما تعرض فيلم جديدًا، ظننتها فُرصة لضياع بعض الوقت، هربًا من كابوس ليل جديد،

مُستسلمًا لبعض أحداثه، وإذا بها لحظات أشبه بما أعانيه، تركت على الفور مِقعدي، كالهارب من وجه يُطاردني، مازال في الليل متّسع، أجرجر خطواتي بمحاذاة شريط الكورنيش، حيث تلمع أضواء احتفال من بعيد، دفعني الفُضول لقراءة بعض ما كتبته سطور ليلة ما بين أصدقاء وفرحة بلقاء حبيبين، يبدو أني حضرت مُتأخرًا، فها هي تخطو بأقدامها داخل عربة الزفاف برفقة آخر، جحظت عيناه، حاول أن يستصرخ صوته فأبى، حاول دق رأسه بيديه كعادته، ولا من جديد، مازال المشهد شاخِصًا أمامه، حاول دك رأسه في الحائط، ربّما كانت يده أضعف من أن توقظه، ولا من جديد، سقط من بين يدي مَن أحاطوه مغشيّا عليه.

-26-

تُــرب الأقباط

أذيع خبر الوفاة..

عبر مكبرات الصوت داخل المدينة، أطرقت بأذني مرّة أخرى كي أتأكد من الخبر استعدادًا لتشييع الجنازة، نعم هو ليس بالصديق الذي تربطني به علاقة قويّة منذ الصِّغر أو هو أحد الأقارب مِمّن ظلّت روابط الدم بيننا لم يكدّرها خلاف على ميراث أو نسب، تجعلني أتحمس بهذا الشكل لتشييع جنازته بل كانت تربطني به علاقة عمل طيّبة على مستوي جلساتنا القليلة معًا.

السّاعة الآن الواحدة والنصف ظهرًا ليوم أحد شهور الصّيف الأكثر حرارة، تتصبّب الوجوه عرقًا، تلتصق الملابس بأجسامنا كأنّها التحمت بنسيج جلودنا في حالة كيميائية، الكثير من الأتربة تعلو لتستقر في كل مكان نتيجة زحام الأرجل واختلاف حركاتها ما بين خفيفة وثقيلة وزاحفة ومتعجّلة، ألا يوجد طريق آخر أكثر براءة من هذا الطريق الموحِش؟ نعم لا يوجد، تتشابك شوارع المدينة وحاراتها في انحناءات واستقامة كأفرع شجرة ضخمة منتهية بجذع كبير، نعم هو طريق (الضِّياع) أو كما يلقّب بطريق تُرب الأقباط.

حالة من الوجوم إلا القليل من همهمات جانبية هُنا وهُناك، تلصّص يقرأ تفاصيل بعض الوجوه التي نادرًا ما تلتقي نتيجة انشغالها بالعمل أو السّفر بعيدًا أو..، رغم كونها تسكن نفس المنطقة التي تُحاصرها المقاهي والمطاعم من اليمين ومن اليسار بالإضافة إلى قُرب هيئاتها الحكوميّة بعضها من بعض، أتذّكره جيّدًا الآن ربّما لم أتذكّره من قبل بمثل هذه العاطفة التي أثارت مدامع العين في أوج اشتياقها، أصبحت تهدّجات قلبي كمطرقة داخل الصّدر، لا أعرف السّبب الحقيقي في ذلك، ربّما هي وسيلة لا إرادية للبكاء منفردًا في مكان لا يستطيع فيه أحد أن يزاحمك بحديث ما أو يُعكّر صفو لحظات هي في حد ذاتها فرصة لانتصار البراءة داخلي.

مازال الطّريق طويلاً بالصّورة التي جعلت البعض يتأفف من شدّة الحر والعرق، تتراجع خطوات البعض تدريجيّا بعد أن كانت تتصدّر المشهد، فينتحي أحدهم جانبًا ليستقل (توك

توك) أحد وسائل المواصلات التي تسلّلت في غفلة لتحتل مكانة لا يمكن الاستغناء عنها في مثل هذه الظّروف، بينما يتلكّأ آخر للحديث مع أحد الأصدقاء لكسر حالة الصّمت ومزاحمة الوقت حتّى نهاية الطّريق، لم أكن بالغريب عنهم في أغلب الأوقات، طالما زاد الطّريق عن حَدّه فلا مانع من الهروب بعيدًا، أحاول طمأنة روحي بأنّها الخسارة الأخيرة، وأن ما حدث كان نتيجة كبريائي في اللّعب واعتقادي بأنّني الأفضل دائمًا، مما جعلني أتسرّع في اتّخاذ القرار المناسب، أو ربّما هو انشغالي بالسّفر جعلني أقل تركيزًا، يبدو أننا بالقُرب من المكان المُحدد للوداع الأخير وانتهاء رحلة أقل ما توصف به رحلة عذاب، فقط وحده المُسجّى داخل صندوق خشبي لا يشعر بمرور الوقت وانصهار الجسد تحت وطأة شمس حارقة سيرًا على الأقدام، لتجد البعض يحاول استعادة ما قد أكله الطّريق من مشاعر تجاه المغفور له ببعض البكاء والدّعاء، إلا أن النهاية بالنسبة لي لم تكن الشّيء المتوقع بتقديم واجب العزاء ثم الانصراف، فبينما اصطف الحضور لتقديم واجب العزاء، مددت يدي مصافحًا وإذا بصاحبي تلمع عيناه بالدّموع لفقد أخيه، لم أتمالك نفسي لما حدث من خطأ لقارئ النَّعي في الإذاعة تذكّرته الآن ،لأبدو مبتسمًا وسط نظراته المُندهِشة لي رغم محاولاتي إخفاء ذلك.

-27-

قُبورًا من التّجاعيد

دائرة..

ما بين ليل ينطوي، ونهار يلوّح بيديه كعودة غائب أرّقه الرحيل عن وطن لا يرى طوق نجاة لغُربته طالما ظل بعيدًا عنه، مبتسمًا كأسراب طير تزاحمت لتعانق وجه عجوز، تقوّس ظهرها حتى لامست رأسها ركبتيها، لتعيد لجسدها بعضًا من الدفء يصلح لأن تهادن به قليلاً من الوقت، تراقب خلف نظارتها المقعّرة خطوات المارّة وبعض الحكايات ربّما تسرّبت إلى مسامعها من جارة لها أو مشاكسة بعض الأطفال ممن تجرّؤوا على اللعب إلى جوارها دون خوف.

كان الأمر عاديًا لو أني ما سمعت اسمها(أم عيّاد) يتردد كثيرًا بين جلسات جدّتي وبعض النسوة من العائلة قبيل الخروج للعزاء، يتوشّحن بالسّواد، يتجاذبن بعض أطراف الحديث، عمّن وافته المنيّة اليوم، زوجته، أبناؤه، بناته ومَن تزوّجن منهن، والتي مازالت في سنوات عمرها الدّراسي، لا سيّما والحديث يتخلله بعض المُزاح أحيانًا، كأنه يوم لا للعزاء فقط ولكنّها فاترينة تتجلّى تحت أغطيتها السّوداء كعوب النّساء أحمرها وأبيضها واستعراض أصابع وصدور تُرصع بالحُلي، الذي طالما تفنن البعض في كيفية إظهاره ما بين التفاتة وأخرى.

لا أخفيكم سرًّا، فقد كانت لجدّتي مهارة وخبرة، تجعلها تقرأ تفاصيل بعض النساء مِن أهل القرية، فتقول مثلاً: هذه الكعوب الحمراء التي تُشبه الدّوم، هي (نجاة) زوجة وهبه الجواهرجي، تخطو كفراشة واثقة الخُطى، يرتج جسدها البض تحت لباسها، في إشارة منها لراحة تتغمّدها ورغد في العيش، وتلك الكُعوب التي تشققت جفافًا، هي لزوجة طُلبة الكلاّف، وقد تركها رفقة طفلين صغيرين بعد موته، وأخرى ...

لوقت ليس بالقريب، فقط هي سيّدة جاءت لتأدية واجب العزاء لا أكثر، إذ كانت عاطفة المودّة أشد وأصدق وأكثر التصاقًا بزي القُربة من الأهل والجيران، فلا يكون اللوم إلا عن تقصير في سؤال عن مريض أو تهنئة بزفاف أو مُساندة في ضيق.

دارت دوائرها الليالي، تئن تحت وطأة أطماع في ميراث، وكراهية في نَسب، وربّما هو استنشاقنا لهواء حداثة، أُرسلت إلينا من بعيد، فتِلك أغنيات بلا روح، وتِلك أحاديث لا تخلو من تردٍّ وخواء، وهذا لباس ليس لرجل يرتديه، وآخر لفتاة يُظهر كل مفاتنها، حتّى أنّها تقزّمت خطواتنا في غُربة من الأهل، إلّا من بعض رسائل شاحبة الوجه عبر الهاتف الجّوّال. منذ ذلك التّاريخ، أصبحت (أم عيّاد) نجمًا يسطع، ولا غِنا عنه في مآتم القرية، لما كانت تتمتّع به من حفظ الكثير من الأغاني الحزينة (العدّودة) كما يطلقون عليها، إضافة إلى رقّة صوتها الذي يثير مكامن الدّموع في العين فتستجيب لها.

نعم هي، تلك الفتاة التي تزوّجت صغيرة لبارع جمالها، خصلات شعر طويلة تنسدل إلى منتصف ظهرها، غمّازتان تُزينان وجنتيها حفرت لهما السّنوات قبورًا من التجاعيد، حتى أنها صارت منحوتة لعظام لا تحمل لحمًا، إثر وفاة زوجها في حادثة على الطّريق، ثم تلاه ابنها الوحيد مصابًا بحمّى، لتقبع وحيدة في دارها تلازم أحزانها ليل نهار، تجتر أحزانها من وقت لآخر كلّما سمعت بعزاء هنا أو هناك.

حتّى أنها كانت تتخابث كثيرًا، إذا ما مرّت أمامها جارة ربّما تعجّلت في خطواتها دون أن تُبادلها تحيّة الصّباح أو المساء، فأرّقها ذلك، وكيف لا؟

إذ يبدو في الأمر ما يجعلها أكثر فضولاً حتّى تناديها، وما إن تلتفت إليها، تُعاتبها بكلمات لوم، هي في حقيقة الأمر مُقدّمة لمزيد من فضفضة لا أكثر، إلى أن تصل لمبتغاها:(أخبار عم فلان إيه؟) فلربّما توفّي دون علمها بذلك

ولم تقدّم له واجب العزاء، ولربّما هي اشتاقت للبُكاء على مَن رحلوا، لتجدد نبض أحزانها التي استكانت دون رغبتها، كمُغنٍ استعاد للتّو صوته بعد انقطاع، فراح يُحلّق عاليًا بصوته في كل مكان ليطمئن أنّه مازال على قيد الحياة.

-28-

مُهاجرًا كالطّير

حيــاة عاديّة..

تلك التي عاشها، يتنقّل بين غرفتين ازدحمتا بالكثير من قطع الأثاث، تتوسّطهما صالة تشابكت حوائطها في شكل عشوائي لا يسمح بمرونة في الحركة من غُرفة إلى أخرى دون أن يجرح خصوصيّتها، لا تكاد جلسته أن تتغيّر طوال السنين، لا لشيء سوى أنّه اعتاد على ذلك رغم محاولاته الكثيرة ولكن دون فائدة، اعتقد أن ما وصل إليه كان مختلفًا تمامًا في بداية الأمر، حريّة في الحركة، همسات حُب لا يجرح وصولها انتباه عين أو تلصّص أُذن، لم يغازله حلم أو رغبة في العيش بأفضل مما هو عليه، إيمانه الشّديد بأن لكل مجتهد نصيب، وأن ما عليه البعض من ثراء هو نتاج جهد وعرق؛ وربّما كان ثراء البعض منهم جاء من أعمال تُفسِد الأخلاق، وهو لا يرى في ذلك أهميّة للبحث عنها، لكنّها الأقدار ساقت إليه بعضًا من نفحاتها، أدارت له وجه الحياة مبتسمًا، يجري كطفل في ساحة خضراء.

قليلٌ من السّعادة، ثم عادت تصارعه الذِّكريات أينما وجّه حديثه، سنوات الطفولة كيف أُعيدها في مكان آخر؟ درجات سلّمنا الخشبي وأنا أداعب في السّماء نجومها، صوت أمي مهاجرًا كالطّير في عودته يحمل إلينا الحُب في أنفاس وحكايات، نقوش على جدران غُرفتي بالطّبشور لقلب يتوسّطه سهم نظراتها إليّ، طفولة يوم زِفافنا تلهو في حديقة الأحلام، لا لم يستسلم لندائها، تلك الرّغبة في العيش بعيدًا.

قليلٌ من الاستكانة، ثم عادت تنخر رأسه الأفكار من جديد، شُرُفات تطل على النيل، واجهات أبنية تصافح في الجمال لوحات بيكاسّو، سيّارات فارهة لأشخاص قلّما هبطت أقدامهم على الأرض، يُهادنها ثم تعود: ألم يكف من العُمر خطوات تتعثّر فيها بين إنحناءات وضيق؟

ألمْ يحن الوقت لمتّسع من العيش؟ لم يعُد في مقدوره مواجهة تلك الرغبات، يبدو أنّها غازلته بمكرٍ ودهاء، كملاكم عرِف نقاط ضعف خصمه فأبى ألّا يترُكه دون أن يرفع راية استسلام.

ليالٍ ما بين شد وجذب، استقر في نهاية الأمر على الرحيل، دون أن تنقطع زيارته لمنزل الأسرة القديم، كان القرار نوعًا من الهزيمة بشكل غير مُعلن، يخلو بنفسه، يتأمّل بعضًا من صور لأحداث مضت، تزاحم عينيه دموع حاول منع جريانها على وجنتيه بمنديل ورقي، متحدّثًا إلى نفسه بصوت مسموع:

(يا لها من أيّام جميلة) مضى من العمر ما أرّق ابتسامته، ثقلت خطوات أقدامه حتى يصل إلى منزلهم القديم، تحسس بيديه بعض الأتربة تغطّي الحوائط والأبواب، تأفف لأول مرّة من وجوده هُنا، كمن وطِأت أقدامه مدينة حرب أهلكتها انكسارات وهزائم، لم تُغالبه اليوم صور من الذّكريات تشتاق روحه إليها، استعصت منابع العين أن تدمع، تململ في جلسته كمن يتلوّى على فِراش مريضًا، يودُّ يومًا أن يُغادره، العُمر يمضي والذّكريات تبقى، هكذا كان يردد في حديثه دائمًا، حتى أصبحت زياراته بعضًا من الذّكريات.